6

نظرية التعليم

صوّر إعلان تلفزيوني حديث يروج لبيرة «سلسة على نحو رائع» أحد الفتيان مع صديقته في زفاف أحد الأصدقاء المقربين. وسرعان ما تبين لهذا الفتى أن العروس السعيدة على وشك أن ترمي باقتها نحو الحشد الكبير من الحضور. وقد علم أن صديقته التي تألقت في ثوب أشبينة العروس تنتظر بلهفة أن تمسك بها. وجرت العادة أنه، في حال أمسكت بالباقة، فسوف تكون العروس التالية التي ستتزوج. الأمر الذي سيسبب لرجلنا الشاب ضغوطات كبيرة تحثه على طلب يدها للزواج. لذا، يطلب الرجل بهدوء من صديقته أن تمسك بشرابه بسبب انشغاله بربط عقدة حذائه. وتفعل الفتاة ذلك برحابة صدر، تواقة إلى إرضائه ومفعمة بالحب في هذه المناسبة الرومانسية. وبينما تمسك بشرابه، تُرمى باقة الورود وتنحرف هي أثناء قفزها لالتقاط الباقة. ولكن بدلاً من ذلك، تلتقط الباقة فتاة يافعة وراء الحشد المتجمع، فيحدق صديقها بغيظ نحو الشاب الذي كان يفترض أن يكون مكانه في هذا الموقف.

إن مثل هذه الفروقات المتعلقة بالنوع في الرغبة بالزواج والالتزام، كانت سبب الكثير من العذاب في مذكرات بريدجيت جونز. ولكن كما رأينا في الفصل السابق، تشكل هذه الفروقات جزءاً صغيراً من مقدار هائل من الفروقات المتعلقة بالنوع التي يُرجح أن يحوي العديد منها تضمينات تعليمية. وقد أشار العلم إلى فروقات في القدرات الإدراكية، حيث تتمتع الفتيات والنساء، عموماً، بقدرات لفظية متفوقة. بينما يتمتع الأولاد والرجال، عموماً، بمهارات بصرية ـ مكانية

أفضل وقابلية أعلى في مجال الرياضيات. أما في ما يتعلق عما يبحث الرجال والنساء في بعضهم الآخر، فقد خلصنا إلى نتائج مقبولة على نحو واسع، وهي أن النساء تعطي أهمية كبيرة للمكانة العالية والإمكانيات المالية للشريك، في الوقت الذي تبذل فيه جهداً أكبر في تربية الأطفال، وتكون أقل عدائية وتظهر ميلاً أقل من الرجال للمنافسة.

إن هذه الفروقات المتعلقة بالنوع (gender) مقبولة على نحو واسع. وسؤالنا الأساسي هو: هل يمكن لهذه الفروقات أن ترتكز ولو جزئياً على أساس بيولوجي، أي على صعيد الصبغيات أو الهرمونات أو الفروقات بين دماغ الرجل والمرأة، أم أنها على الأرجح نتاج تأثير العامل الاجتماعي والثقافي فحسب؟ من أجل معرفة الإصلاحات التعليمية المرغوبة، نحن بحاجة إلى فكرة أوضح لما يمكن أن تكون الإجابة على هذا السؤال، باعتبار أنها تشكل فرقاً لنتيجة الجدال في هذا الكتاب.

كيف لنا أن نبدأ هنا؟ أستطيع أن أتناول أي واحد من ثلاثة طرق للمعالجة. الطريقة الأولى هي أن أقوم بدراسة شاملة لجميع المناقشات المؤيدة والمعارضة للتفسيرات الاجتماعية الثقافية، ثم أقوم بالأمر نفسه للتفسيرات الاجتماعية الثقافية. وهذا ما فعلته «ديان هالبيرن». إلا أن هذا الأمر استغرق كتاباً كاملاً، بالإضافة إلى أنها تطرقت فقط إلى الفروقات الإدراكية. إن مثل هذه الطريقة في المعالجة تبدو غير واردة هنا لأسباب تتعلق بالحيز فقط. أما طريقة المعالجة الثانية فهي على النقيض من ذلك تماماً. إذ أنها يمكن أن تشير إلى عمل آخر يدل على أن البيولوجيا (علم الأحياء) تشكل أساساً للفروقات المتعلقة بالنوع، ويعتبر ذلك أمراً مسلّماً به في غايات الجدال هنا. ربما قد تُستعمل دراسة «هالبيرن» كبداية، وهناك العديد من الكتب الرائجة من هذا النوع يمكن استخدامها لدعم هذا الافتراض من ضمنها كتاب «مات ريدلي» البارع: «الملكة الحمراء»، الذي قد أشرت إليه سابقاً.

obeikandl.com

إن مثل هذه الطريقة في المعالجة تبدو سهلة للغاية. لن يبدو هذا الكتاب مكتملاً بدون المزيد من النقاش بخصوص هذه المسألة الهامة. أو على الأقل قد يتهمني القراء بنقطة الضعف نفسها التي أثرتها ضد الكاتبات الداعيات لحقوق المرأة: وهو أنهن وضعن ثقتهن أكثر من اللزوم في النقاش الذي يلائمهن بالشكل الأمثل. ومن أجل الشمول والإحاطة بهذا الموضوع، ينبغي لنا على الأقل أن نقوم بمحاولة لدراسة البراهين.

أعتقد أنه يمكن إيجاد طريقة مختصرة يمكن أن تمدنا بخيار ثالث منطقي ومُرضي. إذ كما لاحظنا، يبدو أن عدد من الكاتبات والكتّاب الذين قمت باستعراضهم مثل «كارولين كراغليا» و «دانييل كريتيندن» و «روجر سكروتن»، مقتنعين أن الفروقات المتعلقة بالجنس ترتكز على أسس بيولوجية (...). وتبدو «كارولين كراغليا» نموذجية هنا، فعلى سبيل المثال، عند تعليقها على انجذاب «سيمون دو بوفوار» إلى «رجلها المتفوق»، (...) قد وضع أساس بيولوجي لانجذابنا إلى الرجال المتفوقين والأقوياء الأكثر قدرة على حمايتنا والعناية بنا أثناء حملنا بالأطفال. أو التركيز على كيف أن الرجال يريدون من زوجاتهم أن يكن مخلصات وتنتابهم غيرة على نحو غير اعتيادي إذا لم يكنّ كذلك (...)[1].

ومن المثير للاهتمام أنه على الرغم من تفهمها وتعاطفها، فهي تنضم في النهاية إلى الفريق الذي يؤمن بنظرية العامل الاجتماعي. (...) وغاب عنها هذا التفكير حين عادت من جديد إلى جدالها الحاد المؤيد للمساواة حالما وُلد طفلها. فقد لاحظت مثلاً في الشهر الثامن من حملها كيف بدأت بالشعور باتكالية بدائية على شريكها، «وهو شعور بالاتكالية لم تشعر به قبل الآن». الأمر الذي قادها إلى الشك «بمعتقداتها في الحياة فيما يتعلق بقدرة النساء على العيش بسعادة بمفردهن». معتبرة هذا الأمر «كما لو كانت غلطة تطورية في مواجهة الحمل».

(...) ورغم أن هذه المرأة قد احتفظت باسمها قبل الزواج لأسباب تتعلق بحركة دعاة حقوق المرأة، فقد مُنح الطفل اسم الوالد: يبدو لي أن هذا النوع من السلوك اللاواعي «للعمل على بقاء الرجل»، كان ما يشغلنا أنا وصديقاتي. وتتابع: لقد كان أمراً مذهلاً أن أرى مجموعة من النساء اللواتي يؤمنّ بشدة بالمساواة يعدن من أجل الحب إلى معتقدات أساسية للمجتمع السلطوي كن قد أمضين حياتهن كلها بالتمرد عليها. وقد شعرت بالضغوطات نفسها على المستوى البدائي، حيث تضيف: «كنت لا أزال من داعيات حقوق المرأة، لكنني أدركت في هذه المرحلة من حياتي أنه ربما كان من الخطر أن أكون كذلك»[2].

هل نستطيع أن نتتبع هذه التلميحات والمؤشرات لنجد في علم النفس التطوري طريقة للفصل بين نظرية العامل الاجتماعي ونظرية العامل البيولوجي كأسس محتملة للفروقات المتعلقة بالجنس (ذكر/أنثى) التي تم رصدها؟ هذه هي الطريقة الثالثة التي سأقوم بالتحري عنها هنا. وهي طريقة تحوي بعض الخطورة نظراً لوجود الجدال الذي يحيط بهذا العلم الجديد. ينبغي في البداية أن أؤكد على أنه في حال فشل هذا الفصل في إقناع أي قارئ، فإن هذا لا يستثني الإمكانية في طريقتي المعالجة الأخرتين. بالنتيجة، إذا لم يقتنع القراء بتفسيرات علم النفس التطوري، فهذا لا يجعلهم بعيدين عن شرك وجوب إيجاد إجابة مرضِية للسؤال الهام حول كيفية ارتباط فروقات النوع بالجنس.

لذا، لندرس علم النفس التطوري كطريقة ممكنة لتحريك وتيرة هذا الجدال نحو الأمام. إن قراءتي الآن لفلسفة العلم تنبئني أننا سنحتاج إلى أية نظرية لنستكمل أمراً كالشروط الأربعة التالية قبل اعتباره مقنعاً.

الشرط الأول بالطبع، هو وجوب توافق النظرية مع كل البراهين المتوافرة. ينبغي أن لا تكون هناك نتائج لا تتلاءم ببساطة مع النظرية. وفي هذه الحالة، يجب أن تتوافق النظرية مع كل الحقائق المتعلقة بفروقات الجنس المشار إليها في

الفصل السابق. الشرط الثاني، ينبغي أن تكون النظرية قادرة على تقديم بعض التفسيرات التي تعلل سبب نشوء هذه الفروقات بالذات. أي أننا نرجح أشياء أخرى تعادل نظرية قادرة على أن توضح ليس فقط وجود فروقات تتعلق بالجنس في القدرات الرياضية (الرياضيات)، لكنها تفسر أيضاً السبب الذي يجعل الفتيان أفضل من الفتيات في علوم الرياضيات وليس العكس.

أما الشرط الثالث فهو أن الأفضلية يجب أن تُعطى إلى نظرية «قصيرة الباع»، بمعنى أنها يجب أن تكون قادرة على تفسير كل اختلاف يتعلق بالنوع بالطريقة نفسها. فما نبحث عنه هو نظرية تتطلب القدر الأدنى من الشروحات الإضافية الخاصة، ولا تستلزم تفسير إضافي لكل مسألة إضافية تلقي عليها الضوء. وأخيراً وهو الأهم، إن ما يلزمنا هو نظرية قادرة على القيام بتكهنات جديدة وغير متوقعة يمكن اختبارها. ما نريده هو نظرية قادرة على البروز والخروج من الرتابة، ولسان حالها يقول: إذا كنت صحيحة، فهذا ما سيلي، وأراهن أنكم لم تفكروا بهذا! وإليكم الطريقة التي يجب أن تنتهجوها لاختبار هذا. والأفضل من ذلك بالطبع، هو تعزيز التوقعات القابلة للاختبار بالدراسة والبحث التجريبي. وكلما وُجدت توقعات جديدة من هذا النوع كلما كان ذلك أفضل.

هل يمكن لعلم النفس التطوري أن يستوفي هذه الشروط؟ وهل يمكن أن يكون ملائماً أكثر من التفسيرات الاجتماعية ـ التربوية المنافسة. سنحاول في الفقرة التالية أن نلخص ما أعتبره التعاليم الأساسية لعلم النفس التطوري قبل التحري عن ملائمة هذا المنظور للمعايير الأربعة السابقة.

علم النفس باعتبار أن داروين يؤثر

علم النفس التطوري هو برنامج بحثي في العلم الذي يسعى لفهم عقلنا وسلوكنا من منظور كوننا حيوانات ثديية متطورة. أنه علم نفس باعتبار أن «داروين» يؤثر. لا يوجد لدى العديد من الناس مشكلة في تقبل فكرة أن البشر

انحدروا من سلالة قرود خلال تطورهم. وليس لدى العديد من الناس أية مشكلة في تقبل النظرية التي تفيد بأن هناك ميزات مثل عادة المشي بشكل منتصب، أو أن الإبهامين لدينا بوضع متقابل نشأت أيضاً من خلال عملية طبيعية مماثلة. إن علم النفس التطوري ينظر إلى أبعد من هذه الأفكار. لما يجب أن يُستثنى عقلنا وسلوكنا من وطأة التطورات؟

يمكن أن يُفهم علم النفس التطوري على أنه يرتكز على الفكرة الأساسية القائلة بأن الانتقاء الطبيعي قد طور آليات سيكولوجية بالتكيف[3]. وباعتبار أن التطور الإنساني الواضح حدث في مرحلة العصر الحديث الذي ابتدأ منذ حوالي 1.6 مليون سنة وانتهى منذ 10.000 سنة، فيتوجب علينا أولاً من أجل معرفة كيفية تطور الإنسان، أن ننظر إلى الشروط المحيطة لهذه المرحلة، التي أمضى فيها البشر ما يقارب 99 بالمئة من تاريخهم التطوري كصيادين ـ جامعي طعام في إفريقية[4]. في بداية العصر الحديث، كان أسلافنا قروداً ذو عقول صغيرة نسبياً، تمشي بشكل عامودي وتصنع أدوات حجرية بدائية. وبالتأكيد كانوا تقريباً لا يملكون أية لغة أو موسيقى، أو فن أو ذكاء إبداعي كبير. ولكن في نهاية هذه الحقبة، اتخذ أجدادنا، نوعاً ما، شكل الإنسان الحديث، على نحو مطابق لنا في المظهر الجسدي وبنية الدماغ والناحية السيكولوجية[5]. ويحاول علم النفس التطوري أن يبرهن أن الميزات العقلية الإنسانية العالمية الشاملة، أي تلك التي نجدها في كل المجتمعات، هي تلك التي يُرجح أنها تطورت خلال (أو ربما قبل) مرحلة الصيد من وجودنا.

إن لدى نظرية التطور عموماً فرضية أساسية واحدة. وهو أن أي تكيف بحاجة إلى أن يتم فهمه من حيث الوظيفة التي تطور من أجلها. إن التكيفات بحد ذاتها حصلت خلال التغيرات (التبدلات) الأحيائية لفرد واحد. أي عبر التغيرات العفوية في البنية العضوية للحمض النووي (DNA) في نوى الخلايا، ومن المحتمل أن التغيير قد نشأ من خلال تقليد الأخطاء. إن بعض التغيرات

(التبدلات) الأحيائية سوف تعيق الفرد ببساطة، وتسبب خللاً يؤخر تقدمه. بينما تساعد بعض هذه التبدلات والأخطاء الفرد على النجاح. وهذا قد يحدث أساساً في إحدى طريقتين مختلفتين.

ولعل الحالة الأولى معروفة بشكل أكبر، حيث تقودنا نحو عملية سُميت من قبل «داروين» «عملية الانتقاء الطبيعي». وتحدث ببساطة حين تؤدي التغيرات الأحيائية إلى بعض الفائدة للنظام العضوي من أجل البقاء. وذلك لأنها تساعد الفرد في البقاء على قيد الحياة. وهكذا تميل التغيرات الأحيائية المساعِدة إلى الانتقال إلى أجيال لاحقة بأعداد متزايدة. وإذا استمرت بالنجاح، فقد تنتشر لتشمل كل فرد من السكان. وهذا ما يدعى «بقاء الأصلح»، وهي عملية نفعية صارمة بعض الشيء من تبدل للجينات وظهور تكيفات تؤدي في بعض الأحيان إلى بقاء الأقوى، وبالتالي انتشار ميزات وصفات وراثية تنتشر عبر الجنس البشري بأكمله. بالطبع، يتعلق الانتقاء الطبيعي بالصراع من أجل البقاء.

ولكن هناك نوع آخر من الانتقاء عرضه «داروين» أيضاً، ويعتقد الآن بعض علماء النفس التطوريين أنه من المرجح أن يكون له تأثير كبير للغاية على عقولنا وسلوكنا، ألا وهو: «الانتقاء الجنسي». في الانتقاء الجنسي، قد تؤدي التبدلات الأحيائية إلى بعض المنفعة للفرد في سعيه نحو التكاثر. ومجدداً، في حال نجحت، من المرجح أن تتناقل، وإذا استمرت بالنجاح، تتناقل لتشمل كل السكان.

خلق «داروين» نظرية الانتقاء الجنسي ليفسر بعض الأمور الغريبة الخارجة عن المألوف التي لاحظها في عالم الحيوان. وهي تستخدم الآن من قبل علماء النفس التطوريين لتفسير بعض الانحرافات والشذوذ البارزة في السلوك والعقل الإنساني. وكان الشذوذ الأكثر غرابة بالنسبة لـ «داروين» هو الزينة لدى الحيوانات. أو بمعنى أدق، الزينة لدى الحيوان الذكر. فقد رأى «داروين» كيف أن نظريته في الانتقاء الطبيعي لم تستطع أن تعلل سبب وجود الكماليات العديدة، المكلفة وغير الضرورية في مملكة الحيوان، والتي بدا أنها تساهم في إضعاف

openkandil.com

وتقويض بقاء الفرد أكثر من تعزيزه وتقويته. قبل كل شيء، يمكن تلخيص هذه الصعوبات بالنسبة لـ «داروين» في مشكلة ذيل الطاووس. فعوضاً عن المساهمة في تعزيز قدرة الطاووس على البقاء، يبدوا أن الذيل يساهم بشكل حقيقي في إضعاف هذه القدرة. إذا أنه يجعل الطاووس الذكر عرضة للحيوانات المفترسة أكثر بكثير من أنثى الطاووس المزينة باعتدال[6].

على أن «داروين» يعتقد أن التطور يمكن أن يفسر جميع الظواهر الطبيعية، لذا، اضطر أن يبحث في شيء آخر غير التكيفات التي تم اختيارها من أجل البقاء المباشر القصير الأمد. وتطويراً لنظريته في «أصل الإنسان والانتقاء المتعلق بالجنس»، الذي نُشرت في عام 1871، رأى داروين أن بعض السمات التي قد تنشأ كتكيفات ساعدت في المنافسة على شريكات الجنس.

ففي عالم الحيوانات، لاحظ داروين أن الذكور هم الذين يقومون بالمغازلة، وأن الإناث هن اللواتي يقمن بالاختيار. ويتنافس الذكور من أجل هذه الغاية إما بإخافة الذكور الأخرى عبر عرض واستعمال أسلحتهم، أو بالسعي إلى جذب الإناث بزينتهم، أو قليلاً من كلا الأمرين. ولكن ما يقوم به الذكور (الأمر الذي سيرتاح إليه دعاة حقوق المرأة) هو نصف المعادلة فقط. فقد لاحظ «داروين» أن الإناث الصعبة الإرضاء، تقرر مع من ستتزاوج ما أن ينتهي استعراض الذكر لزينته وقوته. وهن يفضلن الأقوى على الأضعف والأكثر جاذبية على الذي تنقصه الزينة. إن تفسير تطور أسلحة الذكر وعدائيته يعد أمراً واضحاً إلى حد ما. فقد ساعدت نظرية «داروين» للانتقاء الجنسي على تعليل سبب شيوع الزينة الجنسية، رغم أنها في ظاهرها تعيق البقاء على قيد الحياة أكثر من تعزيزه[7].

لم يستطع «داروين» نفسه أن يشرح السبب الذي يجعل الذكور يغازلون والنساء يخترن. وتبعاً لنظريته، يمكن أن يكون العكس هو الصحيح. فقد راقب وقام بمجرد الإبلاغ عما رآه. لكنه يعتقد أن ما رآه شبيه بالطرق التي شكل فيها الإنسان الأنواع المهجنة. وقد كتب في «أصل الأنواع»:

تُظهر جميع الحيوانات اختلافات فردية، وكما أن الإنسان يستطيع أن يغير طيوره المدجنة عبر اختيار تلك التي تبدو له الأكثر جمالاً، فإن الاختيار الفطري أو حتى العرضي الذي تقوم به الأنثى للذكور الأكثر جاذبية، سيؤدي بالتأكيد إلى تغير الذكور. وقد تتزايد مثل هذه التغيرات بمرور الوقت لتصل إلى أي حد تقريباً. ويتفق هذا الأمر مع وجود الأنواع[8].

وقد اعتقد «داروين» أن الانتقاء الجنسي لا بد أن يؤدي بطريقة ما إلى بعض التزيينات الذكورية الأكثر بهجة مثل ذيل الطاووس، غير أنه لم يكن قادراً على القول كيف يتم ذلك بالضبط. فقد اقتضى إيضاح هذا الأمر الانتظار حتى حلول القرن العشرين، وبالتحديد حتى ظهور عالم الأحياء «رونالد فيشر»، الذي قام في عام 1915 بنشر فرضيات قدمت الدعامة الأساسية لإدراكنا منذ ذلك الوقت. ولم يتساءل «فيشر» فقط عن السبب الذي تكلف الإناث أنفسهن من أجله عناء الاختيار ـ أو عن الفائدة المتعلقة بالتطور التي ستعود عليهن من جراء هذا الاختيار، وهي مسائل شغلت داروين من قبل ـ بل تسائل أيضاً كيف يمكن أن تكون الخيارات الجنسية قد نشأت. وقد خلص «فيشر» إلى الموضوعين الأساسيين لنظرية الانتقاء الجنسي الحديثة. الموضوع الأول كان نظرية «التزيين الجنسي كمؤشر للملائمة». وقد أرسى النظرية كما يلي:

> لندرس إذاً ماذا يحدث حين يعطي النمط الواضح من الريش الأبيض الساطع، مؤشراً مقبولاً للتفوق الطبيعي. إن نزعةً لاختيار الذكور المتقدمين للأنثى الذين تطور ريشهم بالشكل الأمثل، ستصبح عند ذلك، غريزة مفيدة لدى أنثى الطير. وسيتأصل الميل نحو هذا الأمر بقوة[9].

الشيء الجوهري هو أن الريش المعني قد يكون بحد ذاته عديم القيمة تماماً، ويعمل فقط كمؤشر على اللياقة والصحة والقوة لدى الشريك المحتمل. وتجري العملية على النحو التالي:

لنفرض أن ذكور الطيور الأكثر صحة والأوفر قوة يتمتعون بريش أنصع. في هذه الحال قد تنتج الإناث نسلاً أكبر عدداً وأكثر صحة إذا تزاوجت مع هذه الذكور. وإذا صادف أن لديهن ميل جنسي للريش الناصع، فسيرث نسلهم بشكل آلي صحة أفضل من جهة آبائهم المتمتعين بدرجة عالية من اللياقة. وبمرور الوقت، ستصبح الميول الجنسية للريش الناصع أكثر شيوعاً لأنها تأتي بمنافع تناسلية. عندها، حتى لو كان الريش الذكري الناصع عديم الفائدة في كل النواحي الأخرى، سيصبح الأكثر شيوعاً بين الذكور فقط لمجرد أن الذكور يفضلونه[10].

في الواقع، لقد تطورت هذه النظرية لتشير إلى أن الثمن العالي لصيانة واستعراض الزينة الجنسية هو بالتحديد ما يجعلها مؤشراً موثوقاً للياقة، والصحة والقوة. فذيل الطاووس مثلاً، يتطلب توظيفاً كبيراً للطاقة حتى ينمو. وقدراً كبيراً من الوقت من أجل صيانته. عدا عن أن حمله في كل مكان أمر متعب أيضاً. إن كل ذلك الجهد يبدي للشريكة المحتملة أن الطاووس في أوج صحته. وهكذا فإن الزينة تظهر مدى تلائم الفرد بسبب الكلفة العالية التي يتطلبها الحفاظ عليها.

لنقرن هذه العملية مع الموضوع الثاني الذي عالجه «فيشر» فتصبح الاحتمالات حينئذ لا حدود لها ومثيرة بعض الشيء، لبعض علماء النفس التطوريين على الأقل، من خلال عملية «الانتقاء الجنسي المتقلب». لنفترض أن إناث الطيور استقرت في النهاية على تفضيل الريش الأبيض الأكثر سطوعاً بدرجة خفيفة كمؤشر على اللياقة، وأن الذكور تطوروا تبعاً لذلك، كما رأينا سابقاً. ستبقى الإناث غير راضيات وستبقين بحاجة إلى طريقة ما للتمييز بين الذكر اللائق والذكر الأقل لياقة. الاحتمالات تقول أنهن سيتابعن عمل، ما يعتبرنه «الأفضل» بل وسيبحثن عن ريش أكثر سطوعاً. أما الذكور، حفظهم الله، فسيحاولون مماشاة المتطلبات العالية لشريكاتهم. وستقوم الإناث بتغيير هذه المتطلبات من جديد. وخلال هذه العملية، سيتطور ما سندعوه «سباقاً للتسلح» بين خيارات الأنثى وتطوير الذكر لأساليب تجمله.

وبدمج نظرية اللياقة مع «الانتقاء الجنسي المتطلب»، يتضح بشكل منطقي كيف يمكن للزينة، كذيل الطاووس مثلاً، أن تتطور. ويتم بذلك حل لغز «داروين». إن ذيل الطاووس بمثابة وسيلة جذب. لعل الطووايس الذكور ستكون أكثر قدرة على البقاء على قيد الحياة لو كان لهم ذيل كذيل إناث الطاووس. لكن إناث الطاووس لا يرغبن بذلك، فقد فضلن في البداية قدراً أكثر بقليل من الألوان وأكثر بقليل من التميز. وباعتبار أن الذكور تماشوا مع هذه الميول ، تطور ذيل الطاووس من خلال ميل الشريكة. إن وظيفة الذيل البيولوجية واضحة وصريحة: لقد وُجد «من أجل جذب إناث الطاووس»[11].

وبطريقة موازية، يشير عمل معاصر رئيسي يتناول علم النفس التطوري إلى احتمال وجود عمليات مماثلة تجري عند البشر أيضاً. يحاول البعض البرهان على أن اقتران ميل الأنثى وتنافس الذكر مع المظاهر الأكثر مدنية للانتقاء الطبيعي، قد يفسر العديد من الظواهر في السلوك الإنساني أيضاً. إن الأمر يستحق أن ننظر بإمعان إلى بعض تفاصيل هذا العمل لنبين الطريقة التي تطور بها علم النفس التطوري.

المزاوجة العقلية لدى جيوفري ميللر

كما يرجح بأن الانتقاء الجنسي أدى إلى مقدار كبير من التزيين في ذيل الطاووس، فقد أظهر عالم النفس التطوري الشاب «جيوفري ميللر» في عمله الرائع «المزاوجة العقلية» (2000) أن الانتقاء الجنسي من خلال ميل الأنثى يرجح أنه أدى إلى تطور الدماغ الإنساني وبالتالي إلى تطور العقل[12]. هناك ثلاثة ألغاز أساسية تواجه تفسيرات البقاء التطورية المعتادة لتطور الدماغ الإنساني. الأولى، إذا كان الذكاء والإبداع الإنساني عاملان جيدان من أجل البقاء، فما الذي يفسر عدم تطوير الغالبية العظمى من الحيوانات الأخرى لهذين العاملين؟ إن أدمغتنا تتطلب قدراً عالياً من الطاقة حتى تعمل، لكن يبدو أن معظم الأنواع الأخرى من الحيوانات تتدبر أمرها بشكل جيد بأدمغتها الصغيرة.

الثانية، إن غالبية العلماء قد برهنوا على أن الدماغ كان بحاجة إلى التضخم من أجل البقاء الإنساني. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فيكف يمكن للمرء أن يفسر حقيقة أنه على الرغم من أن حجم الدماغ قد ازداد ثلاث مرات خلال المدة الفاصلة بين 2.5 مليون سنة (في فترة ما بين 2.5 و 100.000 سنة)، فقد استمر أسلافنا في معظم هذه الفترة بصنع نفس النوع من الفؤوس الحجرية؟ إن الميزات المفترضة التي ستعزز قيم البقاء، كالابتكار التقني والنمو السريع للسكان، التي أدت إلى استعمار الكون، لم تحدث إلا بعد أن توقف دماغنا عن النمو.

أخيراً، إن الأشياء التي نقدرها في العقل والتي يجيدها العقل بشكل فريد مثل حس الدعابة ورواية القصص والثرثرة والفن والموسيقى وإدراك الذات وتنميق اللغة والإيديولوجيات التخيّلية والدين والأخلاق، لا ترتبط بشكل واضح بالقدرة على البقاء على قيد الحياة. يقول «ميلر»: أن اللغة تبدو أكثر إسهاباً من أن تكون ضرورية لوظائف البقاء الأساسية. أما الفن والموسيقى فيبدوان هدراً للطاقة لا هدف له. أما الأخلاق فتبدو أن لا علاقة لها بكل ما يتعلق بالعمل اليومي لإيجاد الطعام وتجنب الحيوانات المفترسة.

يعتقد «ميلر» أن نظرية الانتقاء الجنسي للدماغ يمكن أن تحل كلاً من هذه المسائل الثلاث. أما فرضيته فهي كما يلي: لدى أسلافنا المشابهين للقردة، يختلف الذكور في «الذكاء الإبداعي» على الأقل في شكله الجنيني. وقد كان هذا الاختلاف قابلاً للوراثة بحيث كلما تمتع الأفراد بذكاء إبداعي أكثر، كلما أنجبوا نسلاً يتمتع بذكاء إبداعي أكبر. فلسبب ما، طورت بعض الإناث الشبيهة بالإنسان ميلاً جنسياً لهذا الذكاء الإبداعي. ليس مهماً معرفة كيف أو لماذا طوّرن هذا الميل، يمكن أن يكون السبب ببساطة مجرد طفرات أثرت على ميولهن الجنسية. وما أن تطورت، قام هؤلاء الذكور الذين يتمتعون بذكاء إبداعي أكبر بجذب عدداً أكبر من شريكات الجنس وبالتالي كان نسلهم أكبر. وقد ورث نسلهم معدل الذكاء الإبداعي الأعلى من العادي من جهة الذكور، وورثوا الميل الجنسي للذكاء

الإبداعي الذكري من جهة الإناث. لنلاحظ النقطة الأساسية هنا: لا أحد بحاجة إلى الإثبات أن الذكاء الإبداعي له أية فائدة فيما يتعلق بالقدرة على البقاء على قيد الحياة بأي شكل من الأشكال. بل كان له فقط جاذبية جنسية. فمن خلال هذه العملية هذه العملية، يمكن أن يتطور كتجميل جنسي محض.

ولكن كان الأمر على الأغلب أكثر من هذا، وهذا هو الانحراف الجديد لنظرية «ميلر». من المحتمل أن يكون الدماغ والعقل قد تطورا أيضاً من خلال الانتقاء الجنسي كمؤشر على اللياقة. فقد قدر الإختصاصيين المعاصرين في علم الوراثة أن 50 % من جيناتنا معنية في تطور الدماغ، وأن حوالي33 % فقط من جينات الدماغ يمكن أن تكون نشطة. لهذا يمكن للدماغ أن يكون هدفاً للعبث به عن طريق الطفرات، أو يكون العكس، أمراً إيجابياً في إظهار أن الإنسان الذي يحمل هذا الدماغ لم يتم العبث به. وهكذا يقدم الدماغ البشري مؤشراً جيداً جداً على اللياقة.

ولكن لنلاحظ النقطة الأساسية، وهي النتيجة اللاجنسية لهذا الأمر. لنعود بتفكيرنا قليلاً إلى الطواويس الذكور. إن ذيل الطاووس سيكون عديم الفائدة تماماً كزينة جنسية لو كانت أنثى الطاووس غير قادرة على تقديره. إذاً إن نظرة أنثى الطاووس تطورت مع تطور ذيل الطاووس لتصبح قادرة على تقديره بشكل كبير بكل جماله. بل الأهم من ذلك أن تكون قادرة على التمييز بين الذيول الأكثر جاذبية والذيول الأقل جاذبية. وهذا بالتالي يحدد مؤشرات اللياقة الأفضل. يمكن أن تجري العملية نفسها مع تطور الدماغ الإنساني. إذا كان الذكاء الإبداعي مفضلاً لدى الإناث، وتم التعبير عن هذا عبر اللغة والموسيقى والفن والمقدرة العقلية الفائقة، فعلى النساء أن يكن عندئذ قادرات على التقييم والحكم على ذلك السلوك خصوصاً إذا أصبح معقداً أكثر فأكثر. ولكن الإنصات والتحدث يستخدم العديد من نفس الدارات اللغوية. إن القدرة على ابتكار وتقييم الفن «قد يعتمد على قدرات جمالية مماثلة». ويحتاج المرء إلى أن

يتمتع بحس الدعابة ليصبح قادراً على تمييز حس الدعابة لدى الآخرين. باختصار، إذا كانت الإناث قادرات على تقييم الذكاء الإبداعي لدى الذكور، يجب إذاً أن يعملن على تطوير ذكائهن الإبداعي الخاص بهن.

إذا تطور الميل الجنسي الأنثوي نحو تفضيل المحادثات النطقية على الغمغمة، ستتطور القدرات اللفظية الذكورية من خلال الانتقاء الجنسي، لأن الذكور سيطورون مفرداتهم اللغوية وبناء جملهم وتراكيبهم وحروفهم. ولكن إذا كان الانتقاء الجنسي نشطاً، فإن خيار الأنثى سيتزايد أيضاً:

> على القدرات اللغوية الأنثوية أن تسبق القدرات الذكرية بمرحلة، وذلك من أجل استمرارية القدرة على التمييز. لأن الإناث يجب أن يكن قادرات على الحكم على استعمال الذكور للكلمات بشكل صحيح، لذا يجب أن تجاري مفرداتهن اللغوية مثيلاتها عند الذكور. ينبغي عليهن أن يكن قادرات على ملاحظة الأخطاء القواعدية ولهذا يجب أن تكون قدراتهم النحوية مجارية لقدرات الذكور. والأهم من ذلك، عليهن أن يكن قادرات على فهم ما يقوله الرجال ليحكمن على المعنى.

إن هذه العملية وعملية استبطان الذكور بطريقة رد فعل الإناث على استعراضاتهم وإدراك النساء لمدى تعقيد العمليات الذكورية، ستؤدي في الغالب إلى فروقات جنسية صغيرة في الذكاء. وهذا يختلف عن حالة الفروقات الكبيرة في حجم الذيل لدى أنثى الطاووس. ولكن حتى لو كان «جيوفري ميللر» على صواب. وكان تطور الدماغ قد حدث من خلال الانتقاء الجنسي في هذه التركيبة. عندها فمن المؤكد أنه لا يستطيع تفسير القدرات الإنسانية التي نقدرها كالفن والأخلاق واللغة والإبداع؟

لنتناول موضوع الفن أولاً. يقول «ميللر» أن تفسير تطور الفن يعد صعباً من حيث قيمته المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة، ولكن تفسيره من حيث الانتقاء الجنسي يعد شيئاً ممكناً للغاية: «إن ابتكار الزينة العديمة والفائدة التي تبدو غامضة جمالياً هو أمرٌ يجيده الانتقاء الجنسي» أو قد أشار «ميللر» إلى بعض

الأمثلة المماثلة في الطبيعة عند طيور العريش الذكرية في أستراليا وكينيا الجديدة. وهي الأنواع الأخرى الوحيدة التي صرفت وقتاً وطاقة كبيرين بإنشاء معروضات جمالية بحتة أي، الأعشاش، بدلاً من أجسامهم. إن معروضاتهم الفنية هي نتاجات واضحة للميل الجنسي الأنثوي. إذ أن طيور العريش الذكرية تبني أعشاشها الكبيرة جداً بحيث يمكن لـ «ديفيد أتنبورو» أن يزحف إلى داخلها، وهي تستعمل فقط لأغراض الغزَل. وما أن تقرر الأنثى من هو الطير الباني لأجمل عش، تسمح له بمزاوجتها، عندها تخرج من العش لتبني عشاً صغيراً دافئاً وعملياً من أجل أن تربي نسلها بمفردها بدون دعم الذكر، «الأمر الذي يشبه ما كانت عليه عشيقات بيكاسو».

يعمد الذكور إلى تزيين أعشاشهم بمجموعة كبيرة من المواد، وخصوصاً تلك التي تتمتع بألوان برّاقة. ويمكن أن يسرقوا هذه المواد من منافسيهم ويمكن أيضا أن يحاولوا تدمير أعشاش منافسيهم. الأمر الذي يعد «الأكثر قرباً من الفن الإنساني في الأنواع غير البشرية». علاوة على ذلك، يقول «ميللر» من الواضح أن هذا قد يكون مفتاح تطور الفن الإنساني، أي عمل الأعشاش كمؤشرات جيدة على اللياقة: إن بناء هذا العش الكبير يتطلب وقتاً وجهداً ومهارة من أجل تجميع مواد التزيين واستبدالها حين تذوي والدفاع عنها ضد السرقة والتخريب المتعمد من قبل المنافسين، ومن أجل جذب انتباه الأنثى إلى هذه الأعشاش من خلال الغناء والرقص.

بطريقة مماثلة برز الميل الجمالي لدى الأنثى الذي يفضل الفن الذي لا يمكن أن يُبتكر إلا من قبل طير يتمتع بدرجة عالية من اللياقة. إلا أن الجمال يتطلب تكاليف ونفقة ومشقة كبيرة. فنحن عادةً نجد أن الفن الأكثر جمالاً هو ذلك الذي يتطلب من الفنان أن يتمتع بمزايا مؤشرة على لياقته العالية مثل الصحة والقوة والقدرة على الاحتمال والتوفيق بين المهارة البصرية والحرفية، وبالإضافة إلى السيطرة الآلية العالية والذكاء والإبداع والقدرة على الوصول إلى المواد النادرة والقدرة على تعلم المهارات الصعبة، وأخيراً وليس آخراً «الكثير من وقت الفراغ».

ولكن لنلاحظ أيضاً شيئاً هاماً يبرز هنا. على الرغم من أن نظرية «ميللر» تحولت إلى نظرية غير جنسية في العموم، فإن النتيجة الطبيعية هي القول بأنه ليس من المستغرب أن الذكور الناضجين جنسياً قاموا بابتكار جميع فنون العرض العامة عبر التاريخ الإنساني. ذلك أن الذكور هم الذين تمتعوا بالدافع للعب على مسألة الميول الجمالية «لجذب شريكات الجنس».

ولكن ماذا عن الإيثار الإنساني «حب الغير»؟ مرة أخرى يقول «ميللر» أن الإيثار ولاسيما العطاء الخيري يعد شكلاً صعباً من النشاطات الإنسانية القابل للتفسير من حيث العامل التطوري. إن التفسير الطبيعي لذلك يعزو هذه الميزة للتطور الإنساني في جماعات قبلية صغيرة. حيث يعتبر أي نوع من الكرم أمراً تبادلياً في الغالب. لكن الإحسان يختلف عن هذا، فهو إعطاء الأفراد غير القادرين على المقابلة بالمثل وهذا هو بالضبط الغرض من هذا العطاء.

إن أحد المفاتيح لحل هذا اللغز بالنسبة لـ «جيوفري ميللر» كان الملاحظة أنه بعد أن أعلن «تيد ترنر» أنه سيتبرع ببليون دولار إلى الأمم المتحدة، هتفت زوجته جين فوندا بسعادة «أنا فخورة جداً لأنني تزوجتك. لم أشعر بسعادة أكبر في حياتي» وكما علّق «ميلر» ساخراً «على الأقل في هذه الحالة أدى الإحسان إلى هَيام جنسي». وقد أعتقد «ميللر» أن هذا يمكن أن يكون المفتاح إلى معرفة الطريقة التي تستمر بها هذه العملية. وقد رأينا في الفصل السابق دراسة قام بها « ديفيد باس» عبر الثقافات لمعرفة ماذا يفضل الرجال والنساء المجالات التي تتباين فيها ميولهم. ولكن ما يهمنا الآن هو أنهم اتفقوا على عامل واحد: الحنان. وقد كان هذا واحداً من أهم الميزات الهامة المطلوبة في الشريك الجنسي من قبل الرجال والنساء على السواء في كل الثقافات الـ 37 التي تمت دراستها. وقد احتلت مرتبة أعلى من الذكاء والجمال والمكانة العالية. وإذا كان هذا ميلاً جنسياً لدى كلا الجنسين، فإن قدراتنا على الحنان وبالتالي على الإيثار، يمكن أن يكون قد تطور «لأن أسلافنا فضلوا شركاء الجنس الذين تمتعوا بالحنان وحب المساعدة والعدل».

من الصعب معرفة كيف يمكن للكرم الذي يتناول الأفراد الغرباء غير القادرين على المبادلة بالمثل، الأمر الذي يعتبر جوهر الإحسان، قادراً على أن يتطور بنفسه. ولكن هذا يحدث بسبب الانتقاء الجنسي، ومثل هذا الكرم يمكن أن يتطور بسهولة طالما كانت القدرة على الكرم تعكس لياقة الفرد الذي يقوم بالعطاء. ومن الواضح أن هذا ما فعله الكرم بـ «تيد ترنر». في الواقع ينبغي أن يحصل الأمر نفسه مع أي شخص يتمتع بميزة الكرم. إنك لا تستطيع أن تبدد المال على الفقراء إلا إذا كنت تملك أكثر من اللازم من أجل احتياجاتك الخاصة، بالإضافة إلى الرقة والتعاطف. إن كل هذا يوحي لـ «ميللر» أن حقيقة كوننا نجد الرقة والكرم صفات جذابة للغاية في شركاء الجنس، تدل على أن أجدادنا اتفقوا على معادلة رائعة واستثنائية في لعبة الغزل.

أخيراً ماذا عن اللغة؟ إن اللغة هي طريقة واضحة للتلاؤم، وغريزة إنسانية يطورها الأطفال بشكل عفوي. ولكن تلاؤم من أجل ماذا؟ من جديد، يعتبر المفتاح لدى ميللر هو مراقبة الطريقة التي تستعمل بها اللغة في المغازلة لدى البشر وفي التأكيد على التسلسل الهرمي الإنساني والمكانة الاجتماعية. إذا اعتبرت اللغة في المقام الأول كناقل للمعلومات بطريقة تبادلية، كما يعتقد العديد من علماء الاجتماع فإنها عندئذ سوف ستعود على المستمع بمنافع أكبر من المنافع التي سيجنيها المتحدث: «إن المتحدث يعلم مسبقاً ما هي المعلومات التي سيتم نقلها، وهو لا يتعلم شيئاً جديداً عندما يتشاطرها، لكن المستمع يكتسب معلومات جديدة بالاستماع». في هذه الحالة يتوقع علماء الاجتماع أنه ينبغي علينا أن نكون مستمعين ذوي مهارة عالية ومتحدثين بارعين. علينا أن نعتبر الصمت والاستماع بإصغاء إشارة إلى إشباع ذاتي، وأن نعتبر التحدث دون انقطاع كإشارة إلى العمل الغيري الورع. وهذا لا يبتعد عن وصف غنى التفاعل الإنساني:

يتنافس الناس على قول أشياء. ويناضلون ليتم الإصغاء إليهم وحين يبدو أنهم يستمعون، فهم على الأغلب يتدربون ذهنياً على مساهمتهم التالية في الحديث بدلاً من الاستغراق بما قيل لهم للتو من قبل الآخرين. ويعتبر أولئك الذين لا يقومون بإعطاء الدور إلى نظرائهم أنانيين وغير إيثاريين. إن القواعد المتعلقة بالدور أثناء الحديث لم تظهر لتضبط المستمع بل المتحدث.

من جهة ثانية، تشير نظرية الانتقاء الجنسي بشكل أفضل إلى الطريقة التي يتم فيها استعمال اللغة البشرية في الواقع إذ يحتل الغزل اللفظي مركز الصدارة في الانتقاء الجنسي لدى البشر. وهو شكل من أشكال التواصل من الضروري تعلمه واكتسابه من أجل الغزل: يعلم كل والد لديه ولد في مرحلة المراهقة، أن التحول المفاجئ من الهمهمة في أوائل المراهقة إلى الطلاقة اللفظية في مرحلة المراهقة المتأخرة، تتوافق مع الثقة بالنفس اللازمة لمواعدة الفتيات. فعندما يختلط الفتى مع نظرائه، كل ما يلزمه هو همهمة ذات بنية نحوية مفككة. ولكن حين يبدأ الأولاد بالاختلاط مع الجنس الآخر يجدون أن عليهم أن يبذلوا جهداً أكبر: «يبدو أن الفتيات يطلبن المزيد من التعبير والتعقيد والطلاقة والإبداع».

من الممكن أن تكون اللغة قد تطورت من أجل تعزيز المكانة الاجتماعية، الأمر الذي قد يكون جزءاً من عملية الانتقاء الجنسي. قد تم عرض أمر عبر هذه السطور وهو كالتالي «لقد تطورت اللغة الإنسانية المعقدة من خلال الخطباء الذكور المتنافسين على المكانة الاجتماعية العالية بواسطة التحدث ببلاغة باعتبار أن المكانة الاجتماعية العالية ستعود عليهم بالنجاح المثمر». ويبدو أن البرهان الآنثروبولوجي (الخاص بعلم الإنسان) يدعّم هذا الرأي بإظهار روابط بين المهارة اللفظية والمكانة الاجتماعية والنجاح في المجتمعات القبلية.

لو كان «ميللر» على صواب، وكانت اللغة قد تطورت من خلال الانتقاء الجنسي كمؤشر على اللياقة، ستبرز عندها مشكلة كبيرة تتعلق بهذه النظرية. ذلك أن النساء هن اللواتي يتمتعن بقدرة لفظية أعلى وليس الرجال، كما رأينا

في الفصل السابق. ولكن في حال تم انتقاء اللغة جنسياً، ألا يجب أن يكون الأمر على العكس من ذلك؟ كما رأينا سابقاً يؤدي الانتقاء الجنسي عند معظم الأجناس الأخرى عادةً إلى وجود الذكور الذين يتمتعون بقدر أكبر من الزينة. ولكن هذه الحالة لا تنطبق على اللغة. إن «ميللر» لديه إجابة على هذه المسألة. لنعود إلى النقاش السابق القائل بأن إبراز زينة الطاووس لا قيمة له بدون التمييز المقابل الذي تقوم به عينا أنثى الطاووس. قد يكون ذكور الطاووس قادرين على امتلاك ذيول أكبر، ولكن إناث الطاووس هن المجهزات بشكل أفضل للرؤية والحكم على الذيول. ولكن إذا كانت اللغة تستعمل كتجميل جنسي لدى البشر، فمن المتوقع منطقياً أنه سيكون هناك تفوق أنثوي في الإدراك اللغوي، وهو ما يعادل حكم أنثى الطاووس على ذيول الطواويس. لأن الذكور في واقع الأمر يتفوقون في الإنشاء اللغوي. وقد صاغ «ميللر» ذلك ببراعة:

> لابد أن الإناث يميِّزن قدراً أكبر من الكلمات ولكن الرجال يستعملون نسبة أكبر من مفرداتهم في المغازلة، مستندين في خطابهم على الكلمات الأكثر ندرة وغرابة. وفقاً لهذه الرؤية البسيطة، قد يفهم عدد أكبر من النساء ما تعنيه حقاً كلمة: azure الأزرق اللازوردي (لذا فهن يستطعن أن يحكمن بدقة على استخدام الرجل لهذه الكلمة)، ولكن فعلياً قد يتفوه عدد أكبر من الرجال بهذه الكلمة أثناء المحادثة (حتى ولو اعتقدوا أنها تعني اللون القرمزي).

في النهاية إن كل ذلك قد يقود إلى انعكاسات على ما يحدث على النطاق العام ويمكن أن يكون له مضامين تعليمية. على الرغم من أن الإناث متفوقات في اختبارات التفوق اللغوي، يبدو بوضوح أن الذكور لديهم دافع أكبر «لعرض قدراتهم اللغوية علناً». إذ يكتب الرجال كتباً أكثر، ويلقي الرجال محاضرات أكثر، ويسأل الرجال عدداً أكبر من الأسئلة بعد المحاضرات. والرجال يهيمنون على نقاشات اللجان مختلطة الجنس. ويرسل الرجال عدداً أكبر من رسائل البريد الإلكتروني إلى مجموعات المناقشة الخاصة بشبكة الاتصالات العالمية (Internet).

قد يجادل بعض دعاة حقوق المرأة بأن هذا الأمر مبرهن ذاتياً بسبب المجتمع الأبوي، ولكن لما بحق السماء ستكون الحالة على هذا المنوال؟ إذا كان الرجال يسيطرون على المجتمع، لما لا يصمتون ويستمتعون بامتيازاتهم المزعومة؟ يأتي الجواب الأكثر إقناعاً من طبيعة التنافس الجنسي نفسه: لو صمت الرجال فهذا سيعطي الفرصة لرجال آخرين «ليستعرضوا قدراتهم اللفظية». لذا عليهم أن يستمروا بالحديث من أجل المنافسة في الساحة الجنسية. بالنسبة لـ «ميللر» إن هذا المحيط الواسع من اللغة الذكورية التي تواجه النساء المعاصرات في المكتبات، والتلفاز والجرائد وغرف الصف، وقاعات البرلمانات، ومجال العمل يجب ألا ينظر إليه على أنه جزء من مؤامرة ذكورية تهدف إلى حجب صوت النساء. بدلاً من ذلك يجب أن ينظر إليه كونه نشأ عن تاريخ تطوري كان فيه الدافع إلى الحديث أمراً جوهرياً لتناسل الذكور. وينبغي على النساء أن يأخذن على محمل المزاح حقيقة أن الرجال غالباً لا يعرفون الذي يتحدثون عنه، إذ أن هذا يظهر فقط أن ما يقومون بعرضه غالباً ما يفوق إمكاناتهم.

تنبؤات غير مألوفة (غريبة)

تبدو هذه الأمور لي تعاليم أساسية لبرنامج البحث المتعلق بعلم النفس التطوري في بعض من أحدث بياناته. تطبق النظرية التطورية على العقل والسلوك علماً أن الأغلبية العظمى من تطورنا يرجح أنه حدث حين كنا في مرحلة الصيادين ـ جامعي الطعام. إلا أن هذا يعد بعيداً عن المضامين الواقعية. من المحتمل أن الثقافة والفن والأخلاق واللغة بشكل إجمالي يمكن شرحها من حيث فرضياتها البسيطة. الآن: هل يمكن لمثل هذه النظرية أن تعلل سبب الفروقات المتعلقة بالجنس التي أشرنا إليها في الفصل السابق؟ والأهم من هذا، هل تستطيع أن تعلل هذه الفروقات بطرق أكثر إقناعاً من التفسيرات البديلة كتلك التي تشير إلى العامل الاجتماعي والعامل التربوي؟

إن القوى المعرفية التي توفرت لدى الذكور تعكس هذه الاختلافات:

إن القياسات المكانية المختلفة التي تظهر أن توجهات الذكر (مثل الإدارة العقلية، وقراءة الخرائط، والقدرة المدهشة على التعلم) تتوافق مع الصفات التي تمكن من الصيد الناجح. تشمل هذه الصفات المميزة بشكل أساسي القدرة على التوجه الذاتي من حيث العلاقة مع الأشياء أو الأمكنة في رؤية أو تشكيل المفاهيم عبر المسافات، وفي القيام بالتحولات الذهنية اللازمة للمحافظة على التوجه الدقيق أثناء الحركة[17].

قد يرغب بعض دعاة حقوق المرأة في التوقف عند هذه المرحلة. إذ أنها تبدو مألوفة بعض الشيء. وقد يفترض البعض أنها ستكون الطريقة المتوقعة التالية. إلا أن علماء النفس التطوريين انحرفوا في جدالهم. وقد اعترف الباحثون أن الكثير من البحوث التي جرت حتى الآن ركزت نوعاً ما على الذكر، بينما انصب تركيز البحوث الأخرى، التي أجراها في الأصل علماء ذكور، بحثوا واكتشفوا أموراً يجيدها الذكور أكثر من الإناث.

تبين أن علماء النفس التطوريين يعترضون على التحيز الجنسي بانتهاج هذه الطريقة من المعالجة. وقد استعرضوا سؤالاً مختلفاً: إذا وُجدت هذه التلاؤمات التطورية الذكورية المترافقة مع الصيد، إذاً، ألا يجب أيضاً وجود تلائمات أنثوية مترافقة مع جمع الطعام؟ بمعنى آخر، قد يُنظر إلى علماء النفس التطوريين على أنهم يفعلون فيما يتعلق بالإدراك المكاني الشيء نفسه الذي جعل العديد من دعاة حقوق المرأة يثنين على ما فعلته «كارول جيليغان» فيما يتعلق بحسنا الأخلاقي، كما لاحظنا في المقطع الذي يتناول نمطية النوع.

اقترحت «جيليغان» أن الطرق الأنثوية والطرق الذكورية للتفكير الأخلاقي كانت مختلفة. وهذا لا يعني أن هناك تفوقاً ذكورياً هنا. في سياق مناقشتنا السابقة، يقوم علماء النفس التطوريين بتحدي الطريقة العلمية على نحو واضح بالاستماع فقط إلى الصوت الذكوري المهيمن.... وقد أغلقوا بذلك السبل المثمرة المحتملة للبحث[18].

وهذه هي بالتحديد وجهة النظر التي يتحدى بها علماء النفس التطوريون ما يتعلق بالقدرات الخاصة بدراسة الرياضيات. وقد أشاروا إلى أن الجوز والتوت ونباتات الطعام الأخرى تُطمر مع مجموعة مختلطة من النباتات. وبالتالي، من أجل أن تكون جامعاً ناجحاً للطعام سيتطلب ذلك منك تحديد موقع الطعام ضمن مثل هذه المجموعات والعثور عليه في مواسم النمو التالية. إن هذه القدرات ستتطلب إدراك وإعادة تذكر الترتيبات المكانية للمواد والأشياء. أي أن الأنثى التي تجمع الطعام تحتاج إلى أن تكون قادرة على التعلم والتذكر بسرعة محتويات الأعداد الكبيرة من المواد والعلاقات المكانية للمواد بالنسبة لبعضها البعض[19].

وصلنا الآن إلى الجزء الأكثر إثارة من برنامجهم. وهو تفكير علماء النفس التطوريين ما إذا كان بالإمكان تحديد مثل هذا التفوق الأنثوي في المهارات المكانية كما هو متوقع من وجهة نظرهم. وقد أعد الباحثون خمس دراسات وتبين لهم أن ذلك ممكن.

على سبيل المثال، عُرض على المشتركين في الدراسة الأولى صورة «مجموعة مواد»، بلغ عددها حوالي 30 مادة موزعة دون ترتيب ظاهر. ثم عُرضت عليهم الصورة نفسها ولكن مضافاً عليها المزيد من المواد، وطلب منهم وضع علامة على كل المواد التي لا تنتمي إلى المجموعة الأصلية. وفي النهاية، تم إعطائهم صورة ثالثة تضنمت المواد الأصلية ولكن وُضع بعضها في أماكن مختلفة عن مواقعها السابقة. لقد قام الاختبار الأول بقياس ما سمي «ذاكرة المادة»، والثاني «ذاكرة الموقع». وأحرزت الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين 8 إلى 13 عاماً نقاطاً أكبر بكثير من الأولاد الذين يبلغون العمر نفسه في اختبار «ذاكرة المادة»، بينما تفوقت الفتيات الأكبر سناً على الأولاد في اختبار «ذاكرة الموقع».

كانت الدراسة الثانية مماثلة للأولى إلا أنها أُجريت في موقع طبيعي. وهنا لم يتم إبلاغ المشتركين عن نوع التجربة التي سيشتركون بها. بل تم استدراجهم إلى مكتب مؤثث لأجراء دراسة نموذجية مزعومة تتعلق بالتخرج، وطُلب منهم

الانتظار لمدة دقيقتين إلى أن يفرغ الشخص الذي سيقوم بالتجربة من تجهيز معداته. بعد ذلك أُخرجوا من المكتب، وعندها فقط تم إبلاغهم أن الهدف كان معرفة كيف يتعامل الناس بشكل طبيعي مع محيطهم. ثم وُجهت إليهم أسئلة حول موقع المواد في المكتب، وحول الصلة بين هذه المواد. وقد أحرزت الإناث في هذا الاختبار نقاطاً أعلى من الذكور بمعدل 75%.

وقد استنتج الباحثون: إن نتائج جميع الدراسات تتوافق إلى حد كبير مع توقعات نموذج الصياد ـ الباحث عن الطعام للفروقات الجنسية المكانية والقدرات الأكبر التي أظهرتها الإناث، بشكل دائم ومتوافق، والتي تتعلق بتذكر الترتيبات المكانية للأشياء. كما وجدت هذه الدراسات أن الإناث عموماً هن أكثر تنبهاً من الذكور لوجود الأشياء في المحيط وإلى مواقعها، سواء أدركن أن هذا الأمر يتعلق باختبار أم لا[20].

لم تكرر الدراسات اللاحقة النتيجة الخاصة بتذكر الأشياء بشكل ثابت، إلا أن أفضلية ذاكرة الموقع تكررت في عدة دراسات منذ ذلك الحين بدءاً من اختبار الورقة والقلم ووصولاً إلى تقييم المواقع الطبيعية بواسطة الحاسوب. وفي جميع هذه الظروف المتباينة، فاق معدل النساء معدل الرجل بحوالي 80 بالمئة[21].

في عائلتي، غالباً ما كان عدم عثور الرجال على المفاتيح في جميع أرجاء المنزل، وحاجتهم إلى زوجاتهم أو شقيقاتهم أو صديقاتهم لمساعدتهم على تحديد موقعها، إما موضوعاً للمزاح أو مدعاة للسخط. يعطينا علماء النفس التطوريين تفسيراً لسبب تطور هذه الميزة الهامة لدى النساء أكثر من الرجال[22].

أثناء استعراضنا موضوع هذه القدرات الإدراكية، قد يواجه القراء تحدياً آخر. لتناول مهارة ضمن مجال بُرهن فيه مسبقاً تفوق الأنثى، كالقدرة على فهم القراءة. (قد تُثار اعتراضات مماثلة حول التفوق الذكوري في مجال الرياضيات).لا يمكن بالتأكيد لأي عالم نفسي تطوري أن يدعي أن القدرة المتعلقة بالقراءة يمكن أن تكون مهارة إدراكية متطورة؟ إذ أن الكتب لم تكن قد اخترعت بعد في مرحلة

العصر الجليدي. إذاً، كيف يمكن لأفضلية الأنثى في الإدراك المتعلق بالقراءة أن يرتبط بأية أفضلية تطورية؟ يقترح بعض علماء النفس أن أفضلية الأنثى ترتكز هنا على ما يسمونه «نظرية العقل»: تبدو الفتيات والنساء أكثر مهارة من الفتيان والرجال، وسطياً، في القيام باستنتاجات عن الحالة الشعورية، والنوايا وإلى ما هنالك، لدى الناس الآخرين. إن هذه الميزة، القابلة للتفسير من حيث التلاؤم التطوري، هي التي يمكن أن تؤدي إلى ميزة الأنثى في الفهم المتعلق بالقراءة. إذ أن أعظم الميزات لدى الفتيات والنساء ترتبط بفهم الروايات الأدبية والشعر والمسرح، وهو المجال الذي تفوقت فيه الإناث على المعدل المتوسطي للرجال بمعدل بلغ70 بالمئة: «في حالات عديدة، يتطلب الإدراك في هذه المجالات القيام باستنتاجات حول الفوارق الدقيقة للعلاقات الاجتماعية». ولكن بشكل معاكس، إن قدراً أدنى من الفروقات الجنسية وُجد في المجالات التي لا تستدعي وجود الناس، كتلك التي تتعلق بالفيزياء أو الرسوم البيانية لمخططات المدن: «يوحي النمط الإجمالي أن الفرق الجنسي المحتمل في نظرية العقل قد يساهم في الفرق الجنسي في النقاط الإجمالية للإدراك المتعلق بالقراءة»[23].

عودة إلى القدرات المتعلقة بدراسة الرياضيات، لقد تبين أن علم النفس التطوري لا يقدم فقط شرحاً عن سبب احتمال وجود فروقات بيولوجية تؤدي إلى نتائج مغايرة تتعلق بالجنس، بل قام أيضاً باستنتاج جديد لم يتنبأ به علماء البيئة، وهو أن النساء قد قمن بتطوير أنواع مختلفة من القدرات المكانية. وقد تبين أن التجارب التي أُجريت بهذا الخصوص قد عززت هذا التوقع. وهي نتيجة تبدو هامة للغاية. ولكن ماذا عن علم النفس التطوري ومعركته المتعلقة بالجنسين؟

الميول المتعلقة بالتزاوج لدى النساء الناجحات اقتصادياً

هل يمكن لعلماء النفس التطوريين أن يفسروا اختيار النساء الغالب لشركاء الجنس، كما شُرحت في الفصل السابق؟ وهل يمكن أن تؤدي هذه النظرية إلى أية توقعات جديدة لم تقم بها النظرية البديلة، أي التفسيرات الاجتماعية للفروقات المتعلقة بالنوع؟

إن العلم يتقدم باتجاه شروحات هذه النظرية وتوقعاتها من خلال نظرية العالم البيولوجي روبرت تريفرز «التوظيف المتعلق بالوالدين»[24]. ويعرّف التوظيف المتعلق بالوالدين بالتوظيف الذي يقوم به أحد الوالدين في نسله والذي يزيد من فرص هذا النسل من البقاء، ولكن على حساب المساس بقدرة الوالد على توظيفها في نسل آخر. من خلال التفكير بما قد يعني ذلك للجنسين، قام «تريفرز» بتوقع فرضيتين رئيسيتين:

1. في الأنواع التي تتباين فيها الأجناس في التوظيف المتعلق بالوالدين بحسب الجنس، سيكون الجنس ذو التوظيف الأكبر أكثر انتقائية في اختيار شركاء التزاوج.

2. إن أفراد الجنس الذي يقوم بتوظيف والدي أقل في النسل سيكونون أكثر منافسة مع بعضهم البعض من أجل فرص التزاوج مع الجنس ذي التوظيف الكبير[25].

ومن المثير للاهتمام أن هذا النقاش لا يدور حتى عن الذكور والإناث. لندع الرجال والنساء جانباً. فهو يتعلق فقط بالتصنيفات، وهي الأجناس ذات التوظيف «الأكثر» أو «الأقل». الآن، كما أشار «دايفيد باس» لا يوجد «قانون بيولوجي في عالم الحيوان» يدل على وجوب توظيف الإناث بشكل أكبر من الذكور[26]. في الواقع، كما وجد «تريفرز»، هناك أنواع يقوم فيها الذكور بتوظيف بشكل أكبر من الإناث. مثلاً، في أسماك فرس البحر (سمك أبو زمارة)، حيث تقوم الإناث بزرع بيوضها في الذكر، تم تأكيد التوقعات المذكورة سابقاً بشكل حاسم لدى هذه الأجناس. إذ أن أسماك فرس البحر المذكرة تعد أكثر انتقائية للأسماك التي تتزاوج معها. وتعد الإناث أكثر تنافساً للحصول على اهتمام الذكر. وقد أظهرت المزيد من الدراسات أنواعاً أخرى «تنعكس فيها الأدوار الجنسية»، كصرصار الليل، والضفادع البنمية ذات السهام

السامة، وزمار الرمل المنقط[27]. وفي كل من هذه الأنواع، تبين أن الذكر يقوم بتوظيف أكبر في نسله، وهناك منافسة أنثوية أكبر بهدف الحصول على اهتمامه، الأمر الذي يعزز من جديد فرضيات «تريفرز».

قد يعتقد بعض القراء أن هذه الحالات المتعلقة بقلب (عكس) الأدوار الجنسية تبين أن الأدوار الجنسية هي ببساطة اعتباطية. إلا أن هذا سيكون تقديراً استقرائياً خاطئاً. فما نصت عليه نظرية علم النفس التطوري هو أمر أكثر براعة من ذلك: إن الجنس الذي يقوم بالتوظيف الوالدي الأقل، ذكراً كان أم أنثى، سيكون الجنس الأكثر فاعلية في عملية الغزل. بينما يكون الجنس الأكثر توظيفاً والدياً ــ ذكر كان أن أنثى ــ الجنس الأكثر انتقائية. إن المسألة التي تحدد من يقوم بماذا، ربما كانت اعتباطاً تطورياً، إلا أن اقتران التوظيف الوالدي الأكبر مع الانتقاء الأكبر لا يعد أمراً اعتباطياً.

بالطبع، في عالم الحيوانات الثديية وفي الجنس البشري تقوم الأنثى بالتوظيف الوالدي الأولي الأكبر لأسباب واضحة: ذلك أن الحمل، والإرضاع، وتغذية الطفل وتربيته وحمايته تعد كلها وسائل قيمة بشكل استثنائي للنسل، ولم تعين بشكل انتقائي. وتنص القاعدة الأساسية في علم الاقتصاد أن الذين يملكون موارد قيمة لا يقومون بمنحها كيفما أتفق. فبالنسبة للنساء في ماضينا التطوري، يؤدي الاتصال الجنسي إلى مجازفة قد تستدعي وجوب توظيف قدر كبير من الوقت والطاقة في تربية الطفل، لا يمكن توظيفه من أجل تربية طفل آخر. فعلى المرأة أن تحمل بالطفل لمدة تسعة أشهر من الوقت، ثم تحتضنه وتعتني به لعدة سنوات. ونتيجة لذلك، كانت أفضلية التطور للنساء اللواتي كن انتقائيات بشكل كبير فيما يتعلق بشركائهم الذكور. ويعود ذلك إلى أن أسلافنا من النساء كن يدفعن ثمناً كبيراً لو كن غير انتقائيات. فقد اكتشفن عدم نجاح نسلهم بشكل كافي، حيث لم يتمكن سوى عدد قليل من أطفالهم من البقاء على قيد الحياة حتى عمر التناسل. من جهة أخرى ليس للتواصل الجنسي لدى للرجال مثل هذه

obeikandl.com

الدلالات. هنا يوجد بالفعل لا تماثل إجمالي في الطبيعة. إذ يمكن للرجل أن يمضي بعض الدقائق الممتعة في العمل الجنسي، قبل أن ينتقل إلى معاشرة نساء أخريات. وبوجود هذا اللاتماثل، من المرجح أن يطور كل من الرجال والنساء أنواعاً متغايرة من الخطط التناسلية[28].

فيما يتعلق باستراتيجيات التزاوج لدى النساء، يتضح مرة أخرى أن علماء النفس التطوريين قاموا ببعض التوقعات والاستنتاجات الجديدة. فقد قامت النساء بتطوير ميل وانجذاب نحو الرجال الأكبر سناً والأعلى في المكانة الاجتماعية والموارد المالية. فإذا كان الرجال يتباينون في مراكزهم الاجتماعية ومواردهم، وقادرون على صيانتها من الآخرين، فسيكون من المفيد للنساء أن يكن انتقائيات بخصوص من يتزاوجن معه من حيث العثور على شريك ذو مكانة اجتماعية وموارد مالية أعلى. خلال زمن التطور، قد يكون هذا الأمر قد بدأ بكل بساطة لأن المكانة الاجتماعية والموارد المالية سمحت للنساء وأطفالهن بالعيش بشكل أكثر راحة ورخاء (كما يقول ديفيد باس). أو ربما بدأ لأن المكانة الاجتماعية والموارد المالية تعمل «كمؤشرات على اللياقة» فيما يتعلق بالجينات الأفضل، والقوة الأكبر، والصحة، والذكاء الأفضل، أو ما شاكل ذلك. أما الموارد الطبيعية الفعلية التي تتوفر للمرأة وأطفالها، فهي في أفضل الحالات تأثير جانبي مفرح لها (كما يقول ميللر). أياً كان، فإن هذا الميل سيصبح ميلاً متطوراً في المرأة من خلال الانتقاء الجنسي.

كما سبق وأشرنا في الفصل الماضي، لقد وجد الباحثون هذه أن الميول لدى النساء ظاهرة شاملة في العديد من المجتمعات، خلال القرن العشرين على الأقل. وتجسد النساء هذا الميل، بشكل أكبر بكثير مما يفعل الرجال عبر الشريك المحتمل الأكبر سناً الذي يتمتع بالموارد المالية والمكانة الاجتماعية العالية. ولكن قد يستشيط دعاة حقوق المرأة غضباً في هذه المرحلة، إذ يقولون هذا الأمر صريح وواضح، وأن له المزيد من التفسيرات المتعلقة بالبيئة المحيطة والحس

السليم. بالطبع سوف تفضل النساء الرجال أصحاب المكانة والموارد المالية لأنهن حُرمن من هذه الأمور في الماضي. فإذا كانت الطريقة الوحيدة التي تتيح للنساء أن يتمتعن بالاستقرار الاقتصادي هي العثور على رجل قادر على إعالتهن، عندها فمن المؤكد أنهن عندئذ سوف يبحثن عن شخص يتمتع بمكانة اجتماعية وموارد مالية أعلى من تلك التي يتمتعن بها.

من المفيد أن هذا الهجوم يؤدي إلى استنتاج بارع، وهو الاستنتاج الذي يحتمل أن يحكم بين هذين التفسيرين. لو كان التفسير السابق المتعلق بالمحيط صحيحاً، فهذا سيعني أنه باعتبار أن استقلالية النساء تتقدم، وباعتبار أن هناك المزيد من النساء اللواتي يدخلن إلى سوق العمل ويتمتعن باكتفاء ذاتي أكبر على الصعيد الاقتصادي، وباعتبار أن المعايير الاجتماعية تعزز هذه العملية، فهن في النهاية لن يبقين بحاجة إلى أن يبحثن عن رجال يتمتعون بمكانة أعلى ليعتمدن عليهم اقتصادياً. ولكن علماء النفس التطوريين سيتوقعون أن الأمر أعمق من ذلك، وأن النساء قد نشأن على البحث عن هذه المؤشرات التي تدل على اللياقة في شركائهم الذكور. وأن المرء ليس بمقدوره أن يغير مثل هذه الصفة الأساسية التطورية المتأصلة الجذور بمجرد جعل النساء أنفسهن أكثر ثراءً ويتمتعن بمكانة أعلى. لذا، فقد استنتج علماء النفس التطوريين أن النساء ذوات المكانة الاجتماعية الأعلى ستبحثن، مع ذلك، عن رجال يتمتعون بمكانة اجتماعية أعلى، حتى لوكن، على الصعيد الاقتصادي، لسن بحاجة إلى فعل ذلك بعد الآن. بالطبع هنالك نتيجة طبيعية تخص الرجال وهي غالباً ما تُهمَل في مثل هذا النوع من النقاش. فأثناء سعي دعاة حقوق المرأة نحو التفسيرات البيئية التي تعلل هذه الفروقات الخاصة بالجنس، سيستنتجون أن ما يحدث مع الرجال هو العكس: فالرجال الذين يتمتعون بموارد مالية أقل يجب أن يثمنوا النساء اللواتي يتمتعن بموارد أكبر. إلا أن علماء النفس التطوريين، من جهة أخرى، لا يستنتجون ذلك: فالرجال يبحثون عن أشياء غير المكانة العالية عندما يتعلق الأمر بالتزاوج كالشباب والجمال، ولا يمكن لهذه الميول المحددة تطورياً أن تتغير ببساطة نتيجة لفقر الرجل.

لا يوجد أي برهان يؤيد صحة أي من هذه الفرضيات البيئية (الاجتماعية). بالنسبة لأفضليات الذكور، فقد تبين أن الرجال الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية وموارد مالية قليلة لا يبحثون عن النساء الثريات، «أكثر مما يفعل الرجال الناجحون مالياً». أما بالنسبة للإناث وهو الموضوع الأكثر أهمية، فيبدو أن الميل نحو الذكور الأكبر سناً والأكثر نجاحاً يعد أمراً أكثر وضوحاً بين النساء الأمريكيات الناجحات اقتصادياً ومهنياً. فقد تقصت إحدى الدراسات عن النساء الناجحات على الصعيد المادي، وقارنت ميولهن المتعلقة بالذكور مع ميول النساء ذوات الدخل والرواتب الأدنى. وقد كانت النساء الناجحات تجني على الأغلب أكثر من 50.000 $ سنوياً، والبعض كانت تجني أكثر من 100.000 $ وقد كنّ على قدر وافر من التعليم، وتحمل غالبيتهن شهادات مهنية بالإضافة إلى تمتعهن بتقدير ذاتي عالي. أظهرت الدراسة أن هؤلاء النساء الناجحات قد علقن أهمية أكثر من النساء الأقل نجاحاً مهنياً، على الذكور الذين يحملون شهادات مهنية، ومكانة اجتماعية عالية، وذكاء أكبر، والذين يتمتعون إضافة إلى ذلك، بطول القامة والاستقلال والثقة بالنفس. وقد عبرت في الواقع هؤلاء النساء الناجحات المهنيات عن ميلهن نحو الرجال الذين يكسبون مالاً أكثر، أكثر مما فعلت النساء اللواتي يتمتعن بنجاح مالي أقل[29].

وقد كشفت دراسة أخرى عن ظاهرة مماثلة، وهي:

> إن النساء اللواتي يدرسن في الكليات، واللواتي يتوقعن أن يكسبن القدر الأكبر من المال، علقن آمالاً أكبر على العوامل المالية الواعدة للزوج المحتمل، أكثر مما فعلت النساء اللواتي يتوقعن أن يكسبن قدراً أقل من المال. وقد علقت النساء اللواتي يدرسن مهناً ناجحة، كطالبات الطب والقانون مثلاً، أهمية كبيرة أيضاً على قدرة الشريك على الكسب[30].

في الواقع، أثناء مناقشتي هذا الموضوع مع صديقاتي الناجحات اقتصادياً، فؤجئت أن هذا الأمر كان واضحاً لهن، إلى حد أنه لم يعد يستدعي المناقشة. «بالطبع نريد رجلاً يتمتع بمكانة أعلى من تلك التي نتمتع بها! ما الأمر الغريب

بخصوص هذا؟» وقد روى أحد الأصدقاء الذكور الذي كان مرتبطاً مع امرأة ذات مكانة عالية كيف أراد أن يستغرق معها في تخيلات جنسية، وقد بدأ معبراً عما يثيره أكثر بقوله: «لنتخيل أنني عبد فقير يراقبك وأنت تستحمين عارية» إلا أن المرأة قاطعته مباشرة قائلة: «لا، لنتخيل أنك تاجر ثري أو أمير». وقد عبر «ديفيد باس» عن هذا الأمر بطريقة مؤثرة ومسلية قائلاً: لنتذكر الأغنية التي صدرت في الستينات: «لو كنتُ نجاراً، وكنت أنت سيدة نبيلة، فهل كنت ستتزوجين مني بكل الأحوال، وهل كنت ستنجبين طفلي؟» بوجود البراهين المتراكمة حتى الآن، يقول «باس» أن «الإجابة المرجحة هي: لا»[31].

أثناء عملنا على موضوع تفضيل النساء للرجال أصحاب المكانة العالية، عثرنا على استنتاج جديد لعلماء النفس التطوريين تدعمه البراهين. قد لا تفاجئ بعض النساء عند سماعها أن الأبحاث قد أظهرت أن الرجال الذين عُرض عليهم صور لنساء جميلات ومثيرات جنسياً، اعتبروا أنفسهم فيما بعد أقل انجذاباً نحو النساء اللواتي يعيشون معهن، أكثر مما فعل الرجال الذين عُرض عليهم عامل مثير عادي.

قد يستنتج بعض دعاة حقوق المرأة أن هذا الأمر ينطبق أيضاً على النساء: في الواقع، أظهرت الدراسة أن هذه الظاهرة أقل وضوحاً بكثير لدى النساء. ولكن ما سيتوقعه علماء النفس التطوريين هو أن النساء سوف تقوم بعملية «تخفيض درجة الانجذاب» نفسها عندما يُعرض عليهن صور رجال تظهر عليهم إشارات السيطرة الاجتماعية. لذلك، أجري بحث آخر عُرض فيه على الرجال والنساء نفسهم صور لأشخاص من الجنس الآخر، إما أكثر جاذبية أو مسيطرين اجتماعياً، وذلك بترتيب متباين. استمر الرجال بإظهار انجذاب أقل نحو شريكاتهن عند رؤيتهم صور لنساء جذابات ومثيرات. ولكن، بينما أظهرت النساء نفس الدرجة من الالتزام نحو شركائهن بعد مشاهدتهن لصور الرجال الذين يتمتعون بالجاذبية، تقلقل التزامهن حين عُرض عليهن صور رجال تبدو عليهم ملامح السيطرة الاجتماعية[32]. مرة أخرى، يعتبر هذا استنتاجاً جديد مؤيداً بالبراهين.

الميول الجنسية لدى الرجال

إن ميل الذكور الجنسي نحو النساء اليافعات، يعتبر ظاهرة ذائعة الصيت. فلماذا يعتبر هذا أمراً متوقعاً بالنسبة لعلم النفس التطوري؟ لأن جمال المرأة، كما عرّفناه سابقاً، هو الدلالة المؤشرة على شباب المرأة وصحتها وبالتالي خصوبتها. إن الرجال الذين تطورت ميولهم نحو هذه المؤشرات التي تدل على الخصوبة سيزدهرون (تناسلياً)، أما الرجال الذين تضاءل ميلهم نحو الصفات التي تشير إلى خصوبة عالية أو قدرة تناسلية مرتفعة، أي الرجال الذين يفضلون الزواج من نساء رماديات الشعر ويتمتعن بجلد أقل نعومة، وتوتر عضلي أقل قوة، فسينجبون عدد أقل من النسل، وسوف تنقرض سلسلة نسبهم في النهاية.

ويجادل علماء النفس التطوريين بقولهم أنه من المرجح بأن الرجال قد طوروا معايير شائعة للجمال تركز على مؤشرات الخصوبة. وقد بينت دراسة متعددة الثقافات أن هذا الأمر صحيح. فقد طُلب من أناس بأعراق متباينة أن يحكموا على جاذبية نساء آسيويات، ونساء ذوات بشرة سوداء، ونساء ذوات بشرة بيضاء. وكانت نتيجة الدراسة إجماع كبير في الآراء التي تصنف النساء اللواتي يُعتبرن جميلات واللواتي لا يعتبرن كذلك. ومن المثير للاهتمام أن هذا الإجماع لم يتأثر بمقدار تعرض الخاضعين للاختبار لوسائل الإعلام الغربي. وأظهرت دراستان أخريان الإجماع نفسه. وقد أجريتا على رجال تايوانيين ليحكموا بين نساء ذات بشرة سوداء، ونساء ذات بشرة بيضاء. وقد قامت بحوث أخرى بتوثيق هذا الادعاء، حيث عُرض على أطفال تراوحت أعمارهم بين 2 و3، و6، و 8 أشهر صور لوجوه صُنفت بشكل مستقل من قبل بالغين من حيث الجمال والجاذبية. وقد وجد الباحثون أن كلاً من الأطفال الأصغر سناً والأكبر سناً قد حدقوا مدة أكبر في الوجوه الأكثر جاذبية، الأمر الذي يوحي بأن معايير الجمال تبرز بوضوح في وقت مبكر من العمر. وقد تحدت هذه النتائج وجهة النظر الشائعة القائلة بأن معايير الجاذبية يتم اكتسابها عبر التعرض التدريجي لأنماط الثقافة السائدة. إذ لا يبدو أن بروز هذه المعايير يستلزم أي تدريب[33].

الآن، ما هو التفسير البديل لميل الذكور نحو النساء اليافعات؟ أن إحدى تفسيرات دعاة حقوق المرأة قد تمت صياغتها من قبل «ناومي وولف» في عملها الذي يسمى «أسطورة الجمال»، وتنص بأن الرجال يرغبون بالنساء الأصغر سناً لأن التحكم بهن يعد أمراً أكثر سهولة، ولأنهن أقل ميلاً للسيطرة.

إلا أن علم النفس التطوري يملك تفسيراً أكثر تحديداً، ينشأ عنه توقع جديد. ما يرغب به الرجال هو ليس الجمال بحد ذاته. فما يبحثون عنه هو مظاهر للمرأة التي تمتلك خصوبة. حيث تترافق هذه المظاهر، لدى معظم الرجال بالمرأة الأصغر سناً منهم، وفي بعض الأحيان أصغر بكثير. لكن وجهة النظر هذه تقود إلى توقع مغاير للحدس الذي يتعلق بالفتيات اللواتي يفضلهن المراهقون الذكور: يفضل الذكور في عمر المراهقة إناثاً بأعمار أكبر قليلاً منهم. لماذا؟ لأنه، بالنسبة إلى المراهقين، إن النساء الأكبر قليلاً هن أكثر خصوبة من الفتيات اللواتي يماثلنهن في العمر أو يصغرونهن.

وحين وُضع هذا الأمر تحت الاختبار، بينت البحوث أن هذا التوقع الحديث عُزز بشكل كبير(34). فقد سُئل مراهقون من كلا الجنسين تراوحت أعمارهم بين 12 و 19 عاماً عن نوع الشخص الذي قد يجدونه جذاباً: «تخيل أنك ستخرج في موعد برفقة أحد الأشخاص. وتخيل أن هذا الشخص سيبدي اهتمامه بك، وأنك كنت جاهزاً للخروج في موعد، وأن الأمور الأخرى مثل إذن الوالدين أو المال ليست مهمة». وقد سُئل الخاضعين للاختبار عن الحد الأدنى والعمر الذي يفضلونه، وعن الأعمار المثالية لهم. الأمر المثير للدهشة، هو أن الفتيات فضلن دائماً الأولاد الأكبر سناً، كأكبر بعشر سنوات لمن عمرهن 18 عاماً مثلاً. ولكن الأولاد أيضاً فضلوا الفتيات الأكبر سناً بأربع أو خمس سنوات. وقد حدث هذا على الرغم من أن هؤلاء الفتيات الأكبر سناً لم يبدين أي رغبة على الإطلاق في مواعدة رجال أصغر سناً(35). إن أمراً كهذا، يبدو جميلاً ومحزناً إلى حد ما.

تطور تربية الأبناء

لقد أشرنا في الفصل السابق إلى الملاحظة التي لن تفاجئ أحداً، وهي أن النساء يقضين للعناية بأطفالهن وقتاً أكبر بكثير مما يفعل الرجال في كل أنوع الثقافات والشعوب. من جديد، يبين علم النفس التطوري أنه جاهز للتدخل. وهو يتبأ هنا، أن النساء لم يطورن فحسب أساليب تساعدهن على تربية الأولاد، بل طورن أيضاً آليات سيكولوجية تمكنهن من الاستمتاع والمرح في هذه المهمة بطريقة لن يتمكن الرجل من فعلها. حين نرى شيئاً يجذبنا، تتوسع حدقاتنا بدرجة أكبر مما تتطلبه درجة الإضاءة. يدرك علماء النفس تماماً لهذه الظاهرة، وقد ابتكروا «اختبارات توسع الحدقة» يمكن استخدامها لقياس مدى الاهتمام والانجذاب. وبالطبع، فإن الأداء في مثل هذه الاختبارات محصن ضد التحيزات التي يقع بها المرء حين يتحدث عن ذاته، والتي يمكن أن تؤثر على إجابات الاستبيانات. بحيث لا يستطيع الناس أن يتصرفوا وفقاً للطرق التي يعتقدون أنها متوقعة منهم.

حين عُرض على النساء شرائح لصور تظهر أطفالاً رضيعين، توسعت حدقاتهن بنسبة فاقت 17 بالمئة. بينما لم تتسع حدقات الرجال على الإطلاق. أما الشرائح التي تظهر أمهات يحملن أطفالاً رضيعين فقد أدت إلى توسع بلغ 24 بالمئة، بينما بلغ التوسع عند الرجال 5 بالمئة فقط. وحتى هذه الزيادة قد تُعزى إلى انجذاب الرجال نحو الأمهات ولا علاقة لها بالطفل على الإطلاق! وقد أظهرت النساء أنهن يتعرفن على أطفالهن المولودين حديثاً من خلال الشم، خلال مدة زمنية تصل إلى ست ساعات من الولادة، بينما لا يستطيع الآباء فعل ذلك. وبمقدور المرأة اكتشاف وتفسير تعابير وجوه الأطفال الرضع مثل «المفاجأة، والاشمئزاز والغضب والخوف والانزعاج»، حين يتم عرضها لمدة قصيرة على شاشة ما، بينما يفعل الرجال هذا بوقت أكبر ودقة أقل. ومن المثير للاهتمام، أن دقة النساء في مثل هذه التوقعات لا علاقة لها بمقدار الخبرة التي يتمتعن بها مع الأطفال. وهكذا، يبدو أن النساء لا يتمتعن فحسب بميول (تتعلق بالجنس) لتربية الأبناء، ولكنهن يتمتعن أيضاً ببعض الآليات السيكولوجية (الجنسية)، التي تجعل هذه التربية أكثر فعالية[36].

من المؤكد أن الآباء أيضاً لديهم اهتمام لتربية أطفالهم، ففي النهاية، من منظور التطور، يعد النسل وسيلة لنقل الجينات الأبوية للأجيال التالية[37]. إذاً ما الذي يعلل هذا التوظيف الأقل للجهد من ناحية الأب، ليس فقط لدى البشر ولكن في مملكة الحيوان عموماً؟ هناك العديد من التفسيرات الممكنة المختلفة التي تعلل هذا الأمر. إحدى هذه التفسيرات هي «فرضية الشك الأبوي». فالأمهات «متأكدات» 100 بالمئة من انتماء نسلهن إليهن، بينما الآباء ليسوا كذلك؟ لقد أظهرت الدراسات أن «معدلات الرجال المخدوعين»، ونعني بذلك الحالات التي يقوم بها الزوج بتربية طفل ينتمي لرجل آخر دون أن يدرك هذا، تتراوح بين 1 بالمئة و25 بالمئة، تبعاً لنوعية السكان الخاضعين للدراسة[38]. وهكذا، من الممكن أنه بحسب الظروف، قد يكون الأمر أقل فائدة، من الناحية التطورية، أن يقوم الآباء بالتوظيف في نسلهم بدلاً من إنتاج نسل جديد. وبخاصة إذا كان لدى الآباء ثقة معقولة بأن الأمهات ستكرسن أنفسهن لأطفالهن سواء كان الآباء متواجدين أم لا. إذاً باختصار، على الرغم من أن الشك الأبوي لا يحول دون تطور العناية الأبوية للذكر، تبقى مسألة واحدة مؤكدة، وهي ميل الإناث الواسع الانتشار للعمل على توظيف وقتهن وجهدهن في النسل بقدر أكبر مما يفعله الرجال[39].

إلا أن موضوع الشك الأبوي يقود من جديد إلى بعض التوقعات المثيرة الجديدة من وجهة نظر علم النفس التطوري. لو كان الرجال متأكدين 100 بالمئة، أو شبه متأكدين، من كونهم الآباء الحقيقيين للأطفال، فسيكون لديهم أكثر من دافع تطوري للبقاء بجوارهم، والمساعدة على تأمين الموارد اللازمة لتنشئتهم. لذا، يرى المختصون بعلم النفس التطوري أنه سيكون على الرجال أن يُنمّوا آليات سيكولوجية قادرة على مساعدتهم لمعرفة إذا كانوا الآباء الفعليين للطفل أم لا. انطلاقاً من نظرية النشوء (التطور)، يبدو أنه لدى الرجل مصدران، على الأقل، للحصول على المعلومات الممكنة حول أبوته (قبل اكتشاف اختبار الحمض النووي DNA). الأول، أن يكون لديه برهان يتعلق بإخلاص الشريكة الجنسية له خلال

الفترة المعنية. الثاني، أن يكون لديه برهان يدور حول شبه الطفل به. ومن المرجح أيضاً أن النساء سيقمن أيضاً بتطوير آليات لإقناع الذكور بكلا الأمرين السابقين. ويبدو أن بعض الدلائل تعزز هذه الآليات، وسوف نقوم بعد قليل بالتوسع في بعض هذه البيّنات المتعلقة بالغيرة الجنسية. إلا أن الأمر الأكثر روعة الخاص بالمصدر الثاني من البيّنات، هو أن هناك بعض الأبحاث المثيرة التي تبين كيف تقوم الأمهات بتعزيز شَبه الطفل المزعوم للأب. فقد قامت بعض الأبحاث باستخدام شريط فيديو مصور لبعض الولادات في أمريكا. وقد كانت نوعية العديد من هذه الأشرطة سيئة وكانت الأم تحت تأثير المهدئات، ولكنها كانت كافية للتركيز على التلميحات الصريحة بخصوص المظهر الخارجي للطفل. وقد شكلت التعليقات التي قامت بها الأمهات حول الشبه بين الطفل والأب 80 بالمئة من هذه التلميحات، مقابل 20 بالمئة من الحالات ذكرت الأم فيها وجود شبه بينها وبين الطفل. وقد كانت التعليقات مثل: «إنه يشبهك تماماً»، «إن ملمسه مثلك»، «تماماً كأبيك»، وإلى ما هنالك.

وقد أجرى الباحثون أنفسهم دراسة أخرى أُرسلت فيها الاستبيانات إلى الوالدين، وطُلب من الوالدين الذين استجابوا لهذه الاستبيانات إعطاء عناوين أقرباء لغرض إشراكهم في هذه الدراسة. ومن ضمن الأسئلة التي طُرحت كان السؤال: «من هو باعتقادك أكثر شخص يشبهه الطفل؟» وكانت النتيجة هنا أن 81 بالمئة من الأمهات صرحن أن طفلهن يشبه أبيه بالدرجة الأكبر، بينما قالت 19 بالمئة فقط من النساء أنه يشبههن بالدرجة الأكبر. وقد أبدى أقارب الأم أيضاً التحيز نفسه: إذ قال 66 بالمئة منهم أن الطفل يشبه الأب المفترض بالدرجة الأكبر، بينما حددوا نسبة شبهه بالأم بما يعادل 34 بالمئة فقط. وقد جاءت دراسة أخرى أجريت في المكسيك عام 1993 بالنتائج نفسها. من الواضح أن هذا البرهان ليس حاسماً، وأن دعاة حقوق المرأة ذوات النزعة الاجتماعية سيكون باستطاعتهن القول أنه ربما كانت الأمهات يفعلن ذلك بشكل واعٍ من أجل إرضاء الآباء، ولا علاقة للأمر بالنشوء التطوري.

openkanal.com

إلا أن علماء النفس التطوريين توسعوا بهذا الأمر، بل وقد قاموا باستنتاج جديد أكثر جرأة، وعثروا على برهان مثير للفضول إلى حد ما من أجل تعزيز هذه النظرية. قام الباحثون بإعطاء بعض الخاضعين للاختبار صور أطفال، نصفهم فتيان والنصف الآخر فتيات، بأعمار تتراوح بين سنة، وعشر سنوات، وعشرين سنة. بالإضافة إلى صور والدي هؤلاء الأطفال. وكان الغرض مزاوجة كل طفل مع واحدة من ثلاثة أمهات محتملة وواحد من ثلاثة آباء محتملين (وكانت واحدة من هذه الصور تعود إلى الأب والأم الحقيقيين). إذا أجريت المزاوجة بشكل عشوائي، فستظهر المزاوجات الصحيحة بنسبة 33 بالمئة من الحالات. وكانت مزاوجة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و 20 عاماً مع الأمهات والآباء تبلغ نسبة الـ 33 بالمئة المتوقعة. لكن الخاضعين للاختبار زاوجوا الأطفال الذين يبلغون عاماً واحداً من العمر مع الأب بنسبة 49.2 بالمئة من الحالات، وكانت نسبة الفتيان 50 %، و 48 % للفتيات. ولكن كانت نسبة مزاوجة الأمهات 33 أي أنها تماثل نسبة المزاوجة العشوائية.

بمعنى آخر، وجدت الدراسات أن الأطفال الذين يبلغون عاماً واحداً من العمر يشبهون آبائهم البيولوجيين بشكل فريد وليس أمهاتهم[40]. وهذا يخلق الاحتمال الخادع بأن النساء لم يتطورن على نحو يجعلهن يصرحن أن الطفل يشبه أباه أكثر مما يشبههن، بل أن الأطفال هم الذين تطوروا بحيث يشبهون آبائهن عند الولادة. لماذا قد يحصل هذا؟ ربما يعود السبب إلى أن الأطفال استفادوا تاريخياً من شبههم بآبائهم الأصليين، لذلك ميزّ الانتقاء المواليد الذين توفر بهم هذا الشرط ـ ويعود وسبب ذلك، افتراضياً، إلى وجود نسبة عالية من القدرة على البقاء في الحالات المماثلة، بسبب الموارد الإضافية والحماية التي وفرها لهم الذكور. أو ربما كان السبب أن الانتقاء ميز بدلاً من ذلك، الآباء الذين يملكون «سمات» جسدية عبرت عنهم جينياً من خلال أطفالهم لتمنعهم من قتل هؤلاء الأطفال. أو أن الانتقاء ميز النساء القادرات على منع ظهور صفاتهن الجسدية في أطفالهن، لأن مثل هذا الأمر يؤدي إلى اعتراف الأب بالطفل وبالتالي توظيف جهده وموارده فيه.

إن هذه الفرضيات بانتظار المزيد من البحث، لكن الاحتمال الخداع يقدم نفسه بحيث يبدو أن الأمهات وأقاربهن ربما يقولون الحقيقة حين يصرحون أن الطفل «يشبه أباه تماماً».

فروقات الجنس في الغيرة الجنسية

أخيراً ولدى مناقشة موضوع الغيرة، دلت النتائج القوية للباحثين لبعض الوقت أن الرجال والنساء متساوون في الغيرة الجنسية. وقد أظهر هذه النتيجة باحثون من الولايات المتحدة الأمريكية ودراسات عبر الثقافات في هنغاريا، وأيرلندا، والمكسيك، وسويسرا وروسيا، ويوغوسلافيا[41]. لكن علم النفس التطوري توقع أمراً مختلفاً: فبوجود «التوظيف الأبوي» المختلف وظاهرة الشك الأبوي، أليس الاحتمال الأكبر هو أن يشعر الرجال بالغيرة من ناحية العلاقات أكثر من النساء، في حين أن النساء مرشحات للشعور بالغيرة بشكل أكبر من الرجال من ناحية العلاقات ـ باعتبار أن ذلك قد يؤدي إلى تضاؤل ميل الرجال لتخصيص الموارد والطاقة من أجلهن ـ هل هذا يعني أن علم النفس التطوري يعمل بشكل مخالف للبراهين هنا؟

حين درست أنماط الأسئلة التي طرحت في الدراسات المتوفرة، تبين أنه لم يكن واضحاً إذا كان قد تم التمييز بشكل كاف بين هذين النوعين من الغيرة. الأمر الذي أدى إلى اختبارات جديدة وُضعت من قبل علماء النفس التطوريين لاستعراض هذين النوعين من الغيرة. وقد كانت المواضيع التي طرحت عليهم تتعلق بطريقة استجابتهم لحدثين اثنين. الأول كان عن الطريقة التي سيتصرفون بها في حال اكتشفوا أن شريكهم يقوم بعلاقة جنسية مع شخص آخر. أما الثاني فكان عن ردة فعلهم عند الاكتشاف بأن شريكهم على علاقة عاطفية مع شخص آخر. كانت 83 بالمئة من النساء أكثر انزعاجاً من التورط العاطفي للشريك، مقارنة بـ 40 بالمئة من الرجال، بينما وجد 60 بالمئة من الرجال الخيانة الجنسية أمراً مؤلماً، مقارنة بـ 17 بالمئة فقط من النساء. إذاً، عند وضع أسئلة أكثر دقة حول طبيعة «الغيرة الجنسية»، تم اكتشاف فروقات هامة تتعلق بالجنس (gender)[42].

من أجل التأكد من هذه النتائج، وبغرض الابتعاد عن البيانات التي تقدم شخصياً وما قد تتضمنه من انحياز، أُجريت دراسة جديدة باستخدام 30 امرأة في مختبر. وقد تم وضع أقطاب كهربائية حساسة متعددة لقياس العبوس والتعرق والنبض وسرعة القلب. وقد طرحت عليهن بعد ذلك مواضيع حول حالات تتعلق بالوفاء الجنسي والعاطفي لشركائهن. وقد نجم عن ذلك، استجابات متباينة للغاية بين الجنسين، لتعزز بقوة الاستجابات التي ذكرت في الأعلى. وقد كررت أبحاث لاحقة هذه النتائج في ألمانيا، وسويسرا وكوريا واليابان[43]. إلا أنه تم تقديم تفسير بديل يشرح هذه النتائج. فما يخشاه كلا الطرفين هو فقدان الشريك، والنساء تعتقد أن الرجل يمكن أن يمارس الجنس دون أن يتورط عاطفياً، لهذا، يقلقن بمقدار أقل. في حين أن الرجال يعتقدون أن المرأة لن تمارس الجنس مع أحد إلا حين تتورط معه عاطفياً، لذا يقلقون بمقدار أكبر حين تحصل خيانة جنسية. وعند تعديل الاختبارات الأصلية لجعل هذين الاحتمالين محصورين بشكل متبادل، وجدت المزيد من الدراسات أن النتائج السابقة ما زالت تظهر من جديد: يبدو فعلياً أن الرجال يشعرون بغيرة أكبر بسبب الخيانة الجنسية للنساء، في حين تبدو النساء أكثر غيرة بسبب خيانة الرجال العاطفية.

تفسير منطقي لفروقات الجنس

كيف نجح علم النفس التطوري في استكمال الشروط الأربعة. الشرط الأول ينص على أن النظرية يجب أن تكون متوافقة مع كل البراهين المتوفرة. الشرط الثاني هو أنها يجب أن تكون قادرة على تفسير سبب نشوء هذه الفروقات بالتحديد. أما الثالث فهو أنه يجب أن تكون «واضحة» لا تستلزم الكثير من الشروحات. وينص الشرط الرابع على أنها يجب أن تكون قادرة على القيام باستنتاجات غير متوقعة يمكن اختبارها، والأفضل أن توثق من خلال الاختبارات والتجارب.

يبدو من هذه المراجعة السابقة رغم قصرها، أن هذه النظرية قد أبلت بشكل جيد إلى حد ما. فلقد كانت حتماً متوافقة مع كل ظواهر الفروقات المتعلقة بالجنس التي مررنا عليها. وقد كان تفسيرها لسبب نشوء هذه الفروقات بالتحديد واضحاً، ومرتكزاً على الخبرات المختلفة خلال المرحلة التطورية التي تعرضت لها الأجناس المختلفة. وعلاوة على ذلك، فهي لا تقتصر على قولها بأن الرجال والنساء يتمتعون بقدرات رياضيائية متباينة، بل تشير إلى السبب الذي يجعل الرجال عموماً يتمتعون بقدرات بصرية ـ مكانية مختلفة عن النساء، مستندة على تجاربهم المختلفة المتعلقة بماضي كل منهم كصيادين وباحثات عن الطعام. هذا وتقوم النظرية بتفسير كل الفروقات المتعلقة بالجنس التي رأيناها من حيث وجهة النظر المهيمنة نفسها: القائلة بأن التكيفات التطورية حدثت من خلال الانتقاء الجنسي والطبيعي، أو مزيج من كلا الأمرين. أخيراً، وعلى نحو مثير للاهتمام، توصل علم النفس التطوري إلى استنتاجات جديدة نشأت من منظوره، وهو يبين الطريقة التي يمكن من خلالها سبر مثل هذه الاستنتاجات. وفي الحالات الخمسة التي قمنا بوصفها هنا، وجد الباحثون توثيقاً تجريبياً لهذه الاستنتاجات الجديدة.

إن التفسيرات البديلة، كتلك التي تشمل الفرضيات «البيئية» أو «الاجتماعية»، يمكن أن تستوفي بعضاً من الشروط الأربعة. فالفرضيات المتعلقة بالمجتمع، كما أشرنا سابقاً في المسألة المتعلقة بالرياضيات، لا يمكن أن تفسر السبب الذي يجعل الرجال ماهرين في بعض الأمور، والنساء ماهرات في أمور أخرى. بالتأكيد، يمكن أن تفسر أنه إذا كان الرجال يتجهون نحو مجالات معينة، فستكون المجالات التي يحرص العامل الاجتماعي على توجيه الأولاد، وليس الفتيات، نحوها. أما سبب اختيار هذه المجالات وهذه الأدوار أصلاً، فهذا ما تلزم الفرضيات المتعلقة بالعامل الاجتماعي الصمت بخصوصه: إن كون الرجال أفضل في المجالات المتعلقة بالرياضيات، يعد أمراً اعتباطياً، رغم أنه ليس أكثر اعتباطية من عمل الرياضيات كأداة تصفية في المجتمع. أما علم النفس التطوري فقد تجاوز هذا المستوى الحاسم من الاعتباطية.

وربما الأكثر أهمية، هو أن علم النفس التطوري قام باستنتاجات جديدة لم تتوافق مع أي من تفسيرات العامل الاجتماعي. بوجود الأمثلة الوافية التي قمت بإلقاء الضوء عليها في هذا الفصل ـ والتي تم انتقائها من مئات الأمثلة المحتملة ـ من الصعب أن نتبين كيف يمكن لفرضية العامل الاجتماعي أن تشرح سبب الاختلاف في الغيرة الجنسية بين الجنسين، أو سبب الاختلافات السيكولوجية (النفسية) بين الجنسين من حيث ردات الفعل نحو الأطفال، أو حقيقة أن الأولاد المراهقين يفضلون النساء الأكبر سناً مخالفين بذلك الميول الذكرية المألوفة. أو السبب الذي يجعل الرجال الغير ناجحين اقتصادياً يحجمون عن البحث عن نساء ناجحات اقتصادياً كشريكات لهم، أو سبب تفوق الإناث في أشكال محددة من الوعي المتعلق بالمكان. عموماً، تبدو وجهة نظر علم النفس التطوري وافية للاستنتاجات التي يقوم بها، بالإضافة إلى أن التفسيرات المتعلقة بها يمكن أن تتوافق مع صلب السياق التفسيري نفسه.

لا يعتبر أي من هذا أمراً حاسماً ونهائياً، إلا أن هذه ليست هي الطريقة التي ينتهجها العلم. فمنذ كتابات «كارل بوبر»، ونحن على يقين بأننا لا يمكن أبداً أن نكون متأكدين من توصلنا إلى نظريات صحيحة. ما نعرفه فقط هو أننا توصلنا إلى نظريات علمية توفر لنا الفرصة للتقدم أكثر نحو الحقيقة(44). فمن خلال قدرتنا على القيام باستنتاجات جريئة، وباقتراح طرقٍ للتحري عنها، وإيجاد براهين موثقة، يمكنني القول أن علم النفس التطوري قد استكمل بالتأكيد الشروط التي تؤهله ليكون علماً.

إن القول بأن هذه النظرية يمكن أن تساعدنا على الحكم بين نظريات العامل الاجتماعي وبين الأسس البيولوجية للفروقات المتعلقة بالجنس، يبدو أمراً منطقياً على نحو متزايد. إلا أن الكثير يتوقف على هذا النقاش. لا شك أنه منطقي، لكنه جدلي أيضاً. فمن أجل الوصول إلى أهدافنا من هذا الفصل، علينا أن ندرس بعض الانتقادات لنرى إذا كان قد غاب عنا أي أمر هام. ومن المفيد أن

أقوى الانتقادات التي وجهت إلى علم النفس التطوري جُمعت في كتاب واحد يدعى: «واحسرتاه، مسكين داروين»: براهين تعارض علم النفس التطوري. وقد حصد هذا الكتاب شهرة وتأثيراً كبيرين. فأثناء كتابتي للمسودة الأولية، كانت «هيلاري روز» في برنامج «استهل الأسبوع»، على قناة الـ BBC تعرض قضيتها على «جيرمي باكسمان». إن أسماء كبيرة مثل «ستيفن غاي»، بالإضافة إلى الناقدة الأساسية المطالبة لدعاة لحقوق المرأة، «آن فوستو ـ ستيرلينغ»، مؤلفة كتاب: «الخرافات المتعلقة بالجنس»[45]، قد تكاتفت لمواجهة ادعاءات علم النفس التطوري. وقد تم، بنفس الوقت تقريباً، نشر كتاب نقدي آخر بعنوان: «الرجل، الوحش والزومبي (العائد إلى الحياة)»، من قبل «كنان مالك»، وهو كتاب زعم أستاذ علم الوراثة في كلية يونيفيرسيتي، «ستيف جونز»، أنه «شعاع من الحس السليم في ضباب العلم الزائف». وقد قال «أنه كتاب رائع يخترق التحامل والجهل الواضحين الذين يحيطان بعلم البيولوجيا الاجتماعية ليظهر ما يستطيع، وما لا يستطيع العلم أن يقوله عنا». لو تسنى لنا أن ننكب على الانتقادات التي تضمنها هذا الكتاب، والتي تحتوي على الكثير من الهجوم على علم النفس التطوري، فسيكون لدينا قضية منطقية تدعم فرضيات علم النفس التطوري.

واحسرتاه، مسكين داروين

من أجل استعراض انتقادات الأساتذة «هيلاري» و «ستيفن روز»، من المؤسف أن على المرء أن يخوض في مقدار كبير من القدح الذي يهدف إلى الحكم على علم النفس التطوري باعتباره مخفقاً من حيث تأثيره السيئ (والأمور المضرة التي ترافقت معه). ويقول الأساتذة: «بالطبع إن الادعاءات التي تنظر إلى العامل البيولوجي على أنه أمر مقدر قديمة قدم التاريخ نفسه، وتعود جذورها إلى أرسطو، هذا الرمز السلطوي المتأصل في الفكر الغربي. ولا يوجد سوى خطوات قليلة تفصل بين الاستبداد البيولوجي زمن أرسطو وبين الإبادة الجماعية النازية للغجر واليهود، والعنصرية البغيضة، ورعب معسكرات الموت. إن هذا الداء الذي

قُدر لنا أن نحذره تربطه صلة مباشرة بعلم النفس التطوري». علاوة على هذا، فإن خطة عمله السياسية، تبدو بوضوح أنها جزء من هجوم اليمين الليبرالي على الشعب ككل وعلى دولة الرفاهية. أما سلفها الحالي، وهو البيولوجيا الاجتماعية، فيدعم بالشواهد الثقافية هجوم تاتشر على دولة الرفاهية[46].

قد يُدحض هذا المجرى من التحقيق بسهولة تامة. في الواقع، إن إلقاء اللوم الواضح على أرسطو يضع الأمر برمته في وجهة نظر معينة. فهذا «الرمز السلطوي المتأصل» قد أثر بجانب أفلاطون على فكرنا وعلمنا الغربي بأكمله، بحيث لا يوجد شيء منيع ضد هذا التأثير، حتى ممارسات «هيلاري وستيفن روز» التي تميل إلى مرحلة ما بعد الحداثة بشكل حصري. ولو كان علم النفس التطوري مذنباً لارتباطه بأرسطو، فهذا أيضاً هو حال البيولوجيا وعلم الاجتماع الداعي لحقوق المرأة الذي يدعو له «ستيفن وهيلاري روز» على نحو خاص والتي ترتبط بأرسطو بالدرجة نفسها. بالإضافة إلى أن استحضار شبح «هتلر وتاتشر» وموضوع الإبادة الجماعية لم يساهم في إعطاء مصداقية لهذه الانتقادات.

لعل المسار الأكثر أهمية للمتابعة فيما يخص موضوع «الذنب بسبب الارتباط» هو توجيه النقد إلى علم النفس التطوري باعتباره متحيزاً على الصعيد الجنسي. فقد أشرنا سابقاً كيف بدا أن علم النفس التطوري قد توصل إلى استنتاجات لا جنسية حول السلوك الإنساني. إلا أن الناقدة الداعية إلى حقوق المرأة «آن فوستو- ستورلينغ» تعارض هذا الأمر، إذ تقول: «لقد قدم علم النفس التطوري» نسخة كرتونية «عن النساء، وعزز السياسة الفاسدة للوضع الراهن». وهي تعارض هيمنة علم النفس التطوري بواسطة رجال متحيزين جنسياً ويعتقدون أن النساء غير قادرات على تطوير هزة الجماع الجنسية لديهن. «ويبدو أننا كنا محظوظات لأن البحث عن الإشباع الجنسي الدائم يعد أمراً هاماً لدى الرجال»[47]. ومن أجل تصحيح اعتقادها الخاطئ، يمكن لها أن تقرأ وصف «جيوفري ميللر» الذي يفيد بأن النساء لا يطورن فقط هزة الجماع الجنسية لديهن، بل يطورن أيضاً قضيب الرجل من خلال ميولهن:

من المحتمل أن أنثى الجنس البشري القديم لم تفضل القضيب الأغلظ والأطول والأكثر مرونة بحد ذاته. ببساطة، ربما أحببن هزة الجماع الجنسية، والقضيب الأكبر يؤدي إلى هزة جماع جنسية أفضل عبر السماح بوضعيات جنسية أكثر تنوعاً وإثارة وحميمية..... لو كنا نوعاً يسيطر فيه الذكور على النظام الجنسي، لكان لدينا قضيب لا يتعدى طوله الإنش الواحد، كما هي الحال في الصفة الغالبة لدى الغوريلا. إن قضيب الرجل الكبير هو نتيجة خيار الأنثى في التطور. لو لم يكن الأمر كذلك، لما أربك الذكور أنفسهم وطوروا مثل هذا العضو الكبير والمتثاقل والتواق للدماء. لقد دفع أسلافنا من النساء الرجال إلى تطوير مثل هذا القضيب لأنها تفضله.

لعل انتقادات «آن فوستو- ستيرلينغ» كان يجب أن توجه إلى «ستيفن غاي غولد»، رفيقها في مجموعة روز وروز (Rose and Rose)، فهو من رأى أن هزة الجماع البظرية هي تأثير جانبي تطوري لقدرة الرجل على هزة الجماع القضيبية[48].

قد يكون بعض علماء النفس التطوريين في الزمن الماضي متحيزين جنسياً إذ أنهم ركزوا على سلوك الذكر. إلا أن هذه الانتقادات تبدو كرسم كاريكاتوري لما أصبح عليه علم النفس التطوري اليوم. إذاً، ما هي الاعتراضات المتعلقة بعلم النفس التطوري كونه علماً؟ إن خمسة من أهم الاعتراضات تتعلق بالفرضية القائلة بأن كل التطورات الهامة حدثت خلال مرحلة العصر البلستويسني (الجليدي)، وهي كالتالي: كيف لنا في الواقع أن نعرف ما حدث في تلك الفترة، وتجاهل علم النفس التطوري للتأثيرات البيئية، ودائرية/ دورانية نقاشات علم النفس التطوري، ومسألة ما إذا كانت السمات الشاملة العالمية هي على الأرجح نتاج للتكيف أكثر من أن تكون نتاج للثقافة على نحو يتعذر اجتنابه.

هل توقف العصر التطوري قبل 10.000 سنة مضت؟

يتحدى الانتقاد الرئيسي الأول المقدمة المنطقية لعلم النفس التطوري. ويتلخص هذا الانتقاد أنه خلال مرحلة العصر الحجري القديم كانت السمات الإنسانية الأساسية ثابتة، وأنه لم يتوفر الوقت منذ ذلك الحين

لتغيير هذه السمات[49]. وأن أمراً كهذا غير منطقي على الإطلاق. وتقول «روز وروز» على أنه: في هذا الأسلوب من البناء، لا شيء في الواقع يوحي بحدوث تغيرات صغيرة كانت أو كبيرة منذ عصور ما قبل التاريخ، رافقت التكيف التطوري. إن إدعاء كهذا يبدو متطرفاً، بوجود التغيرات الهائلة التي قام بها البشر عبر الانتقاء الصنعي بين الحيوانات المدجنة، كالماشية والكلاب، بل وحتى بين طير «داروين المفضل» ، أي الحمام، وذلك خلال عدة أجيال فقط. ويقولون إذا حدث ذلك لدى الحيوانات فلماذا لا يحدث الأمر نفسه لدى الإنسان: «لما هي غير بشرية؟»[50].

قد لا يكون علم النفس التطوري بالصلابة التي وصفها آل روز، لكنني أعتقد أن نقدهم قد لمس وتراً حساساً، على الرغم من أنه ربما لم يكن ذلك الذي يهدفون للوصول إليه. على الأقل، لم يستبعد بعض العلماء في علم النفس التطوري أن التغيرات يمكن أن تكون قد حدثت في زمن أكثر حداثة. وبما أن 99 بالمئة من التطور الإنساني حدث خلال مرحلة العصر الجليدي، فإن معظم تكيفاتنا التطورية يرجح أنها قد حدثت خلال هذه المرحلة. يلخص «جيوفري ميللر» هذا الموقف بقوله: عند نهاية مرحلة العصر الجليدي أي قبل 10.000 عاماً، كان أسلافنا قد أصبحوا فعلياً أجناساً بشرية حديثة.

إن التطور الذي شكل طبيعة الإنسان قد حدث بأكمله في مرحلة العصر الجليدي. ولكن في الـ 10.000 عاماً التالية، انتشر البشر في جميع أرجاء الكوكب، وقاموا بابتكار الزراعة والنقود والحضارة، وزاد عددهم من عدة ملايين إلى عدة بلايين. وبينما يُعتبر هذا الزمن زمناً هاماً، فإن عشرة آلاف سنة التي تعني أربعمائة جيل من الأجناس البشرية، قد لا يكون وقتاً كافياً لتطوير العديد من التكيفات السيكولوجية (النفسية) الجديدة. لكنه يعد مقداراً كافياً من الوقت لحدوث الانتقاء الجنسي السريع وجعل السكان يتباينون قليلاً في بعض المظاهر المتعلقة بشكل الجسم، وهيئة الوجه، والسمات السيكولوجية. وقد لاحظ كيف أن

openkabadi.com

الانتقاء الجنسي يمكن أن يكون قد أدى إلى ظهور الأنوف البارزة والأسنان الأكثر بياضاً لدى بدو «ووداب» الذين يحترفون رعي الماشية في نيجيريا والنيجر[51]. إلا إن «ميللر» ليس معنياً بهذه الاختلافات العنصرية والعرقية، بل «بالقدرات الذهنية البشرية الشاملة». لكنه يوضح كما يفعل البعض، أن بعض التكيفات التطورية يمكن أن تكون قد حدثت في الفترة اللاحقة.

ليس واضحاً السبب الذي يجعل «ستيفن روز» يعتقد أن هذه الفرضية «لا تحتوي على دراسة جدية»، إذ باعتبار أننا أمضينا 99 % من وقتنا كصيادين ـ وجامعي طعام، من المرجح أن يكون لهذا تأثير علينا من حيث التطور، أكبر من تأثير الـ 10.000 عاماً الماضية. لكنه يرحب، بروح العلم الجديد، بالقيام باستنتاجات تتعلق بالتغيرات التي يمكن أن تكون قد حدثت في الـ 10.000 عاماً المنصرمة. لكن موقفه هذا، قد يكون شبيهاً بفتح صفيحة من الديدان، وهو على ما أعتقد، السبب الذي جعل علماء النفس التطوريين غير راغبين في الوصول إلى هذا الحد. لقد لاحظ كل من «هيلاري» و «ستيفن روز» أنه لا يمكن اتهام علم النفس التطوري بالعنصرية على الأقل، وذلك بسبب إصراره على وحدة الأنواع البشرية[52].

في الواقع، هناك أمر غريب بعض الشيء يتعلق بالتقليل من ذكر الأمور الخاصة بالعرق. على الرغم من أنه قد أشار إلى وجود اختلافات ثقافية محددة بين الأمم، لا يوجد هناك أي دليل في كتاب «ديفيد باس» الشامل على أن النساء الصينيات مثلاً تعطي قيمة للعذرية، لا تعطيها لها الأوروبيات بنفس الدرجة على الرغم من اعترافه بوجود اختلافات ثقافية بين الشعوب. ولكن كما يقترح «هيلاري» و «ستيفن روز»، فإن هناك فرضية معقولة تنص بأن لبعض الفروقات مصدر تطوري. في الواقع، من الواضح أن جميع الاختلافات العرقية يمكن أن تكون تطورت فقط خلال الـ 10.000 عاماً المنصرمة، وذلك حين انتشر النوع البشري انطلاقاً من إفريقيا. آخذين هذا بعين الاعتبار، كان على «هيلاري» و«ستيفن روز» أن يكونا حذرين عند انتقادهم لعلماء النفس التطوريين بسبب

تركيزهما فقط على تلك المظاهر المتعلقة «بوحدة» النوع البشري، خشية أن ينجم عن هذا فتح صندوق باندورا (امرأة أرسلها زيوس عقاباً للجنس البشري). إن تطور الاختلافات العرقية لا يبدو أنه أمر يهتم علماء النفس التطوريين بدراسته، ولو سار «هيلاري» و «ستيفن روز» على نهجهم، لربما فعلوا ذلك.

كيف يمكن أن نجد البرهان من أجل استكشاف علم النفس التطوري؟

ويرتبط اعتراض مماثل من «ستيفن غاي غولد» ذو علاقة بالبراهين التي قدمها «كنان مالك». ويجادل «غولد» بأن الخلل الأساسي في علم النفس التطوري هو أنه كيف يمكن لنا أن نعرف بالتفصيل ماذا عملت الزمر الصغيرة من الصيادين ـ جامعي الطعام في إفريقية قبل مليوني سنة؟ إن هذه الصعوبة تمثل المشكلة الأساسية بالنسبة للعلم، باعتبار أن المزاعم المتعلقة بالفترة التي يفترض أننا تطورنا خلالها، لا يمكن اختبارها أصلاً، بل هي خاضعة للتخمين فقط.

هل تعتبر هذه مشكلة أساسية؟ أنا لست متأكد من أنها كذلك، إن هذا سيبدو مشابهاً لنقد يرى أن الدراسة المتعلقة بالعلوم التي تهتم بالكون الذي تشكل بعد الانفجار الكبير (Big Bang)، لذا فإن الطريقة الوحيدة المتاحة لهؤلاء العلماء هي العودة إلى الوراء ملايين السنين ودراسة أصل نشوء الكون كما حدث. لكن النتائج الفيزيائية للانفجار الكبير تحيط بنا من كل جانب. مما يجعل بمقدورنا إجراء تجارب باستخدام المواد المتوافرة لدينا اليوم. ألا يمكن لوضع مشابه، إلى حد ما، أن يطبق عملياً علم النفس التطوري واهتماماته بالماضي؟

بالطبع تحتاج النظرية لبعض البراهين من مرحلة العصر الجليدي. ويسلم «غولد» بأن أسلافنا قد تركوا ورائهم بعض الأدوات والعظام، وأن علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) يمكن أن يقوموا ببعض الاستدلالات المنطقية البارعة من هذه المخلفات[53]. ويوافق «ديفيد باس» بقوله: «إن أجزاء العظام المتوافرة من كل أنحاء العالم تكشف عن سجل أنثروبولوجي يزخر بأشياء مثيرة للاهتمام تنم عن براعة الإنسان. إن طرق تحديد الزمن بواسطة

الكربون تزودنا بتقدير أولي لأعمار الجماجم والهياكل العظمية، كما تمكننا أيضاً من تتبع تطور حجم الدماغ خلال العصر الألفي». هذا وتكشف أجزاء العظام عن مصادر الجروح والأمراض والوفاة.

هناك مخلفات وعظام متحجرة لحيوانات كبيرة تزودنا بمعلومات عن نظام أسلافنا الغذائي، وكيف قام أسلافنا بحل مشاكل التكيف المتعلقة بتأمين الطعام[54]. ولكن «غولد» يعتقد أننا لا نستطيع الذهاب إلى أبعد من هذا والحصول على المعلومات الأساسية اللازمة لإظهار صحة مزاعم التكيف، بخصوص علاقات القرابة والتراكيب الاجتماعية وحجم الجماعات، والنشاطات المختلفة للذكور والإناث، والأدوار التي لعبها الدين، والرمز، ورواية الحكايات، ومئات من المظاهر الأساسية الأخرى التي لا يمكن تعقبها من خلال المستحاثات[55].

قد يكون من المعتقد أن هناك مسلك واضح واحد يواصل التركيز على مجتمعات الصياد ـ جامع الطعام. يمكن أن نتوقع الحصول على معلومات من جماعات الصيادين ـ جامعي الطعام الموجودين حالياً أو بقيت موجودة حتى وقت قريب، وخصوصاً تلك التي بقيت معزولة نسبياً عن الغرب. إلا أن مالك يحذر من هذه المقاربة في المعالجة. إذ يقول: «حتى شعوب الكونغ في بوستوانا كالاهاري، أو أبناء البلاد الأصليين في أستراليا، يرجح أنهم قاموا بتحويل حياتهم خلال العشرة آلاف سنة المنصرمة». في الواقع، لقد ذكر أحد علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، أن شعوب الكونغ ليسوا أصلاً صيادين ـ جامعي طعام، لكنهم انساقوا نحو العيش كما يعيش الرعاة اللذين يتكلمون لغات البانتو، إذا قاموا بإجبارهم على أن يعيشوا حياة على الهامش. إذا كان هذا الأمر صحيح. فإنهم لا يمثلوا الصيادين ـ جامعي الطعام، تماماً كما لا يستطيع الغجر المعاصرون الذين يعملون في سوق أو معرض ما في أوروبا، أن يكونوا دليلاً إلى الحضارات البدوية القديمة. باختصار، إن المجموعات البشرية ليست ساكنة ومستقرة. فهي تتطور بمرور الوقت. فمن غير المحتمل أن يكون الصيادون ـ جامعو الطعام اليوم كأسلافهم في العصور الحجرية، تماماً كما لا يشابه المزارعون اليوم، المزارعين منذ 10.000 سنة.

تعتبر هذه النقاط مفيدة، ويمكن أن تعمل على تعديل حماس علماء النفس التطوريين الذين قد ينساقون وراء الاعتقاد بأن مجتمعات الصياد ـ جامع الطعام المعاصرة ستكون مطابقة لمجتمعات أسلافنا. ولكن هل يمكن تطبيق ذلك عملياً على علماء النفس التطوريين الفعليين؟ يستشهد مالك بشخصيات بارزة مثل «ليدا كوزميد» و «جون تووبي»، تشير إلى أننا نستطيع أن نجمع المعلومات شيئاً فشيئاً عن أصولنا التطورية عبر التحري عن مجتمعات الصياد ـ جامع الطعام المعاصرة. وبشكل مماثل، ينسب إلى «روبرت رايت» مؤلف كتاب «الحيوان الأخلاقي»، القول أن دراسة مجتمعات الصياد ـ جامع الطعام المعاصرة هي كإلقاء لمحة خاطفة على المراحل المبكرة من تطورنا الثقافي. لا شك أن «المعلومات التي تجمع شيئاً فشيئاً» و «اللمحة خاطفة»، هي طموحات معتدلة إلى الدرجة التي لا تثير معارضة «مالك»(56).

إن القبول بوجود الحاجة إلى مقاربة معتدلة، والتي يبدو أنها المقاربة التي تعتمدها شخصيات هامة في علم النفس التطوري، كيف يمكن لنا اختبار الفرضيات التي نشأت من دراسة مرحلة ما قبل التاريخ والمجتمعات البدائية المتوافرة؟ يقول «غولد» أن علم النفس التطوري لا بد أن يكون «غير قابل للاختبار وغير علمي» بشكل محتوم(57). إلا أن استعمال هذه البيانات المتراكمة، مقرونةً مع النظريات المندمجة مع التوقعات عن نوع الحياة في مرحلة العصر الجليدي، يمكّننا من ربطها مع الحاضر. من أجل استكشاف هذا الأمر، لنضعه في سياق محاولة علم النفس التطوري إظهار أن الفروقات المتعلقة بالنوع تطورت خلال مرحلة العصر الجليدي، وأن هذه المرحلة هي المرحلة الأكثر أهمية بالنسبة إلى سلوكنا الحالي، وليست مزيداً من التأثيرات البيئية الحالية.

يمكن لعلماء النفس التطوريين أن يباشروا بواحدة من طريقتين على الأقل. الطريقة الأولى، هي أن في استطاعتهم أن يبدؤوا من النظريات المتعلقة بالماضي، ويقوموا باشتقاق فرضيات واستنتاجات من الممكن اختبارها الآن. مثلاً،

openkandi.com

من النظرية التي تقول بإسناد السلوك الإنساني التزاوجي على نحو راسخ على أسس النظرية التطورية، ونظرية التوظيف الأبوي، يمكن لنا أن نقوم باشتقاق الفرضية التي تشير إلى أنه باعتبار أن النساء يستثمرن القدر الأكبر من التوظيف الأبوي، سوف يكنّ أكثر انتقائية عند اختيار الشريك. الطريقة الثانية، تنص على أنه يمكن إجراء تجارب بهدف اختبار الاستنتاج الذي يشير إلى أن المرأة تتطلب وقتاً أطول وتضع معايير أكثر تشدداً قبل الموافقة على ممارسة الجنس أكثر مما سيفعل الرجل.

وفي حال قام البرهان بتعزيز هذا الاستنتاج، وهو ما سيحدث، نستطيع أن نجد دعماً للنظرية القائلة بأنه من المرجح أن ميول النساء قد تطورت في وقت كان فيه هذا الأمر يعد شيئاً هاماً، وأن هذه الميول محصنة نسبياً ضد التأثيرات البيئية التي يتعرض لها الرجال والنساء اليوم. بالطبع لا تعتبر هذه النتائج حاسمة ونهائية. لكنها ببساطة جزء من مجموعة من البراهين تتشكل على نحو تدريجي عن التأثيرات على السلوك الإنساني. وإذا وجدنا أنه يمكن لعالم مختص بالظروف البيئية أن يتنبأ ولأسباب مختلفة بنتائج مماثلة، يمكننا أن ننقح هذا التنبؤ إلى أن نجد طرق تساعدنا على الحكم بين كلا الاحتمالين، وقد تم مسبقاً في هذا الفصل، إعطاء بعض الأمثلة عن سير هذه العملية. أي أن علم النفس التطوري لا يتطلب منا العودة إلى الوراء حتى ماضينا التطوري من أجل الحصول على براهيننا كلها: إذ يمكن لنظرية تشرح ماذا حدث في الماضي أن تقودنا إلى استنتاج حول سلوك يجري اليوم. والذي في حال أثبتنا صحته، يمكن أن يساعد على توثيق النظرية المتعلقة بالماضي.

على نحو بديل، يمكن لعلم النفس التطوري أن يستخدم طريقة المقاربة «الاشتقاق عبر الملاحظة». وهي تبدأ من ملاحظة الوضع الراهن، وتطوير الفرضيات التي يمكن أن تربطها بالنظرية التطورية (نظرية النشوء) والاستدلالات المنطقية المتعلقة بمرحلة العصر الجليدي. على سبيل المثال، من الملاحظة التي

تشير إلى أن الرجال يعطون أولوية للمظهر الجسدي للنساء أكثر مما تفعل النساء، نستطيع أن نطور النظرية القائلة بأن المظهر الجسدي للنساء قد زوّد أسلافنا الرجال بإشارة تدل على خصوبتهن. وانطلاقاً من هذه الفرضية، يمكننا بالتالي إجراء التجارب لتحديد ما إذا كانت معايير الجاذبية لدى الرجال ترتكز بقدر كبير على الإشارات التي تدل على خصوبة المرأة. وإذا تبين أن الأمر كذلك، وهذا هو الصحيح، فسيكون لدينا عندها، برهان أكثر تعزيزاً لنظرية تعود إلى الوراء حتى مرحلة العصر الجليدي، ولكنها تجري تجارب وملاحظات تعود إلى الحاضر.

دورانية النقاشات

وفي موضوع متصل، يعتقد «مالك» بوجود دورانية في الكثير من الاستدلالات المنطقية لعلم النفس التطوري. ويشير إلى أن المثال الذي سيلي هو نمط نموذجي عن الاستدلال المنطقي الخاطئ: «إن العنف ميزة شاملة مطورة. وباعتبار أنها صفة مطورة، فإن أشكالها السابقة لا بد أن تتجلى في الأجناس الأقرب للإنسان. وباعتبار أن أشكال مماثلة من العنف يمكن رؤيتها لدى أقربائنا المتطورين لدينا برهان إذاً أن العنف سمة مطورة». ويعد هذا استدلال منطقي دوراني، برأي «مالك» إذ يقول: «إذا عمدت إلى دس استنتاجاتك في الطريقة التي تنتهجها، فمن المحتم أنك ستحصل على النتائج التي تريدها»[58].

أنا لست واثقاً إذا كان «مالك» يريد القول أن علم النفس التطوري يتبع الخطوات الثلاث التالية:

1. إن العنف سمة عالمية مطورة.
2. وباعتبار أنها سمة مطورة، فإن أشكالها السابقة لا بد أن تتجلى في الجنس الأقرب للإنسان، أي: قرد الشمبانزي.
3. وباعتبار أن أشكال مماثلة من العنف عند الإنسان يمكن رؤيتها لدى أقربائنا المتطورين، إذاً أصبح لدينا برهان على أن العنف سمة مطورة.

أعتقد هنا، أنه هو الباحث الذي يدس استنتاجاته. إذا يبدو لي أن النقاش يأخذ بدلاً من ذلك الشكل التالي ذي التركيبة الأكثر ملائمة:

1. نرى من ملاحظاتنا التجريبية أن العنف صفة عالمية توجد لدى مختلف المجموعات البشرية.
2. يفترض علم النفس التطوري أنه لهذا السبب، من المحتمل أن هذه السمة قد تطورت. وهو افتراض نرغب باختباره.
3. إذا كان العنف سمة مطورة، فنستنتج أن أشكاله السابقة لا بد أن تتجلى في الأجناس الأقرب للإنسان.
4. انطلاقاً من ملاحظتنا، تشاهد هذه السمة عند أكثر الأجناس المتطورة قرباً من الإنسان هي قرود الشمبانزي.
5. بالتالي، أصبح لدينا تعزيزاً لاستنتاجنا بأن العنف سمة مطورة.

من المؤكد (خلافاً لنسخة مالك الدورانية المستنبطة) أن هذا هو نمط الجدال الذي ينتهجه علماء النفس التطوريون، وهو أسلوب علمي ومنطقي. النقطة الأساسية هي أن ما يشير إليه «مالك» على أنه مجرد افتراض، هو في الواقع نظرية قابلة للاختبار. ولو لم يجد علماء النفس التطوريون أشكالاً مماثلة من العنف في أكثر الأجناس المتطورة قرباً، لكان ذلك كافياً بتقويض الفرضية على نحو جدي. وحتماً، لو لم نرصد هذه الصفة في قرود الشمبانزي، لربما دُفعنا إلى الاستنتاج أن العنف لا علاقة له بماضينا كقرود، بل له علاقة مباشرة بثقافتنا. ألم يضف اكتشاف كهذا إلى فهمنا لطريقة معالجة العنف؟ بالطريقة ذاتها، إن معرفة إمكانية وجود علاقة ما تربط العنف بتركيبتنا البيولوجية تضيف إلى فهمنا للمجتمع الإنساني، وإلى طريقة معالجة المشاكل التي تحصل فيه.

تجاهل التأثيرات البيئية والثقافية

هناك انتقاد أساسي ثالث لعلم النفس التطوري، ألا وهو تجاهله لدور البيئة وإمكانية تطوير الإنسان لقدرة التكيف مع البيئات المختلفة. تثير «آن فوستو

ستورلينغ» هذا الموضوع ضمن سياق الجنس (gender). إذ تقول أن «البشر البدائيين كانوا يجدون أنفسهم في مجموعة متنوعة من البيئات المختلفة»، لذلك فإن الفكرة القائلة بوجود مجموعة من السلوكيات التناسلية الخاصة بالنوع الإنساني أصبحت ضرباً من الهراء. وهذا لأن منطق الانتقاء الطبيعي يقضي بأن على الأفراد أن ينوعوا سلوكياتهم التناسلية بحسب البيئات التي يجدون أنفسهم فيها. وتتابع: «وتبعاً لبيئاتهم المحيطة، يمكن لكلا الجنسين أن يظهرا مجموعة متنوعة من السلوكيات. إن تغيير البيئة، يمكن أن يغير مجموعة السلوكيات».

وتقدم لنا «ستورلينغ» مثالاً يوضح هذه الفرضية، وهو سلوك العصافير الزرقاء الشرقية ـ وهو أمر مضحك بعض الشيء ـ إذا تذكرنا انتقادها لعلماء النفس التطوريين قبل عدة صفحات، عندما ذكرت بأنهم يتنقلون بطريقة فروسية بين الطيور والبشر، ثم إلى الطيور مرة أخرى. وتشير في مثالها إلى «مرونة» سلوك العصافير الزرقاء الشرقية. إذ بسبب ندرة مواقع بناء الأعشاش، تقوم هذه الطيور بالدفاع عنها، ومقايضتها مقابل الجنس كي تسمح للإناث باستعمال منطقتها. ولكن حين بدأ البشر بوضع صناديق أعشاش، أدى هذا إلى توفر فائض من مواقع الأعشاش، بالتالي لم تعد الإناث مضطرة إلى مقايضة الجنس مقابل المكان. وكردة فعل، بدأ الذكور بتغيير سلوكهم من أجل أن يتميزوا عن نظرائهم، وذلك عن طريق مساعدة الإناث بإطعام صغارها: «بمعنى آخر، لقد أظهر الذكر والأنثى في العصافير الزرقاء الشرقية مرونة سلوكية». وهي تضيف «في الواقع، إن مثل هذه المرونة بحد ذاتها، يمكن أن تكون «سمة خاضعة للسيطرة الجينية»، كما تظهر لنا مجموعة كبيرة من التجارب المستخلصة من التجارب»(59).

ولكن سلوك العصافير الزرقاء لوحدها لا يجعل الأمر حاسماً، فمن الممكن، على سبيل المثال، أن يكون السلوك الإنساني ليس بهذه المرونة. ربما لم يتطور بالطريقة نفسها. ربما يكون السبب أن أحداً لم يتدخل لإعطائنا البديل الإنساني لصناديق الأعشاش. والأهم من ذلك، أن شيئاً كهذا كان يمكن أن يقود إلى فرضيات قابلة للاختبار.

بالتأكيد لم يكن ديفيد باس ليعارض هذه الانتقادات المزعومة. فهو في غاية الانزعاج لأن علم النفس التطوري لا يدل ضمنياً على أن السلوك الإنساني محدد جينياً، بحيث لم يعد هناك مجال للتأثيرات البيئية. وهو يقول أن نظرية التطور تمثل فعلياً «إطاراً تفاعلياً حقيقياً». إن السلوك الإنساني لا يمكن أن يحدث بدون: (1) تكيفات متطورة و(2) إدخال المؤثرات البيئية التي تعمل على إثارة تطور وتفعيل هذه التكيفات.

بغرض توضيح هذا الأمر، عمد باس إلى تقديم الثفن (جزء متصلب من الجلد) كمثال، وهو عبارة عن تكيف حدث من أجل حماية الجلد. لا شك أن للثفن عنصر جيني أساسي، ولكن لا يسعنا القول أنه محدد على الصعيد الجيني فقط، وأنه يحدث بغض النظر عما يحدث في البيئة المحيطة. لا، فهو لا يحدث إلا عند وجود مؤثر محيطي من الاحتكاك المتكرر للجلد. إذاً، فالثفن هو «نتيجة لشكل محدد من التفاعل بين المؤثرات البيئية (وهو في هذه الحالة الاحتكاك المتكرر للجلد) والتكيف مع الاحتكاك المتكرر والذي يتضمن التعليمات لتشكيل المزيد من خلايا الجلد الجديدة عند تعرض الجلد لاحتكاك متكرر». في الواقع، إن سبب تطور التكيفات هو أنها توفر للكائنات الحية أدوات من أجل التصدي للمشاكل الناجمة عن البيئة المحيطة.

علاوة على هذا، يبدو أن العديد يعتقدون أن علماء النفس التطوريين يلمّحون بين السطور أنه «إذا كان السلوك تطورياً، فلا يمكننا تغييره». مرة أخرى، أن العلم لا يتضمن شيئاً كهذا على الإطلاق. لنتأمل مسألة الثفن من جديد. نحن لا نحب هذا الجلد الزائد، لذا نعمل على توفير بيئة خالية نسبياً من الاحتكاكات الجسدية، وبالتالي لا نعاني من هذا الجلد الزائد. «إن المعرفة بهذه الآليات والإدخالات المتعلقة بالبيئة التي تعمل على إثارة تطور وتفعيل هذه التكيفات، تزودنا بالقدرة على تغيير «سلوكنا»، وفي حالتنا هذه، مقدار وسماكة الأثفان التي ننتجها[60].

obeikandl.com

بطريقة مماثلة، بإمكاننا أن نستمد قدرة هائلة من معرفتنا بأصل السلوك الجنسي. على سبيل المثال، هناك برهان، كما أشرنا سابقاً، على أن النساء اللواتي يبتسمن لرجل ما، غالباً ما يُفسر سلوكهن هذا من قبل المراقبين الذكور، أكثر من المراقبات الإناث، على أنه يدل على اهتمام جنسي. بمعرفتنا لذلك، يصبح لدينا طرق متعددة تمكن من تقليل النزاعات التي يمكن أن تنشأ عن هذه الآلية، على الرغم من أن علم النفس التطوري يرى على الأغلب أن هذه الآلية قد تطورت وأصبحت بالتالي جزءاً من تركيبتنا الجينية. نستطيع أن نقوم بتعليم الرجال أن ابتسامة امرأة ما لا تعني وجود نية جنسية بالضرورة. وهي الإمكانية التي يقدمها «باس»، مستعرضاً أوراق اعتماده كأحد دعاة حقوق المرأة. ويمكننا بالطبع تعليم النساء أن يكن أكثر حياءً وخجلاً، وأن لا يبتسمن للرجال. هناك احتمالات أخرى أيضاً، كالطريقة الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية التي تقضي بعدم السماح لأي رجل برؤية ابتسامة المرأة عدا زوجها.

النقطة الجوهرية هي أنه لا يوجد خلاف هنا بين النقاد المفترضين وأنصار علم النفس التطوري. وكما يشير «ستيفن روز»، «فإن الطبيعة البيولوجية لكوننا بشر تمكننا من خلق حياة فردية ومجتمعات جماعية يكمن مستقبلها، على الأقل جزئياً، في أيدينا»[61]. لا شك أن «باس» لن يعارض أمراً كهذا. «جزئياً»، مستقبلنا في أيدينا نحن. ونتساءل الآن: أي جزء منه؟ ما هو المقدار المطواع المرن من سلوكنا؟ يعد هذا أحد الأسئلة الأساسية التي يسعى علم النفس التطوري إلى توضيحها، وهو بالطبع أحد الأسئلة الأساسية فيما يتعلق بسياسة التعليم.

السمات العامة والتطور

إن أحد انتقادات «مالك» الأساسية والتي تتحدى براهين علم النفس التطوري، هو أنه إذا كان هنالك سلوكيات شاملة في كل المجتمعات، فهي على الأرجح ستقوم بتطوير تكيفات. على العكس من ذلك، يجادل «مالك» أن العديد من السلوكيات التي تعتبر شاملة وعالمية، يمكن أن تكون ثقافية واجتماعية أكثر

منها فطرية. فهو يأخذ كمثال طريقة تصنيف الجنس البشري للطبيعة، التي تعد في الوسط الأدبي صفة مميزة للإنسان. وهذا يمكن أن ينشأ بسهولة بسبب وجود علاقات موضوعية حقيقية في عالم الواقع، الأمر الذي لاحظه أسلافنا ببساطة: فربما قد لاحظوا أن الحيوانات التي تضع مولودها عن طريق الولادة تميل إلى إرضاعه، بينما لا تميل الحيوانات التي تتكاثر عن طريق وضع البيوض إلى ذلك، وإلى ما هنالك. إن الأمر الحاسم بالنسبة لمالك، هو أنه في حال وجود انتظام كافي في العالم الحي، فإن هذا يمكن أن يؤدي إلى تكيف تطوري.

> إذا يوجد أيضاً انتظام كاف وضغط على الجنس البشري لخلق مثل هذا التصنيف عن طريق التجريب، بدون الحاجة إلى التركيبات الفطرية...... وإذا كانت الطبيعة قادرة على القيام بهذا دون تبصر، فيمكن كذلك أن يقوم به البشر مع القليل من (بعد النظر)...... فأنت لست بحاجة إلى الانتقاء الطبيعي لتميز شجر الدردار من شجر الرماد.

لنفرض أن «مالك» هنا على صواب. ما الذي سيلي هذا؟ لنلاحظ أنه لا يقول أن مثل هذه السمات العالمية هي بالضرورة سمات ثقافية أو اجتماعية، «وكلها بكل بساطة يمكن أن تكون كذلك». وعلاوة على ذلك، «من الواضح»، أن العديد من الصفات العالمية يمكن أن تكون ذات منشأ ثقافي، إلا أنها تعتمد على السمات المطورة.

يبدو هذا اعتراضاً منطقياً على المقاربة التي تفترض أن جميع السلوكيات الإنسانية العالمية، لا بد حتماً أن تكون فطرية وليست مكتسبة. ولكن هل يتداعى بنية نظام علم النفس التطوري إذاً؟ يبدو أنه لا يتداعى، ولكن هذا يفيد فقط في تركيز اهتمام العلم بشكل أكثر دقةً على السمات العالمية التي هي على الأرجح فطرية، وذلك لفصلها عن السمات التي يرجح أن تكون مكتسبة.

ومن المفيد أن «مالك» نفسه قد قدم مقاربة ثنائية للمساعدة على التمييز بين هذين النوعين من السلوكيات العالمية. تركز الأولى على السلوكيات العامة العالمية «التي لا يبدو أنها الاستجابة الأكثر منطقية للمشاكل الناجمة إما عن العالم

الطبيعي أو العالم الاجتماعي». إن السبب الذي يكمن وراء التركيز على هذه السلوكيات «الغير منطقية»، هو أنه من غير المرجح بدرجة كبيرة أن يكون هذا التعدد الوافر من الثقافات الإنسانية قد كشف بالمصادفة الاستجابة الغير المثلى ذاتها لمشكلة معينة. بالتالي، تظهر أرجحية أن مثل هذه الاستجابة قد طورت. ويلخص «مالك» بقوله: «إن الأشياء الغريبة وغير القابلة للتفسير وغير المنطقية، التي يقوم بها الجنس البشري برمته، هي على الأغلب ميراث طبيعي، كالخوف العام، مثلاً، من الحيوانات الزاحفة (الأمر الذي كان نافعاً في العصر الحجري، لكنه غير منطقي في عصر الفضاء)».

إن المعيار الثاني الذي يدل على السمات المطورة هي وجود سلوكيات شاملة وعالمية «لا يمكن أن يكون قد جرى تعلمها، إما لأن فرصة تعلمها لم تسنح للطفل، أو بسبب عدم وجود المعلومات الكافية في بيئته المحيطة بحيث يتاح له فرصة تعلم مثل هذه السلوكيات». ويرى «مالك» أن الأمثلة هنا تتضمن اكتساب اللغة، واكتساب المعرفة حول العلاقات الفيزيائية الأساسية في العالم، وتقبل حقيقة أن جميع البشر يملكون عقولاً»[62].

فيما يتعلق بكلا هذين المعيارين، يبدو أن السلوكيات العالمية الخاصة بفروقات الجنس تظهر بشدة أنها فطرية أكثر منها مكتسبة. وقد رأينا مسبقاً في الفصل السابق كيف تتواجد الفروقات الأساسية المتعلقة بالجنس في الأطفال الرضيعين، وهذا يستبعد احتمالية كونها فروقات مكتسبة. فيما يتعلق بالمعيار الأول، لاحظنا عبر هذا الكتاب أن عدم عقلانية ومنطقية هذه الفروقات المتعلقة بالجنس بالتحديد، هو الذي يثير حفيظة دعاة حقوق المرأة المطالبين بالمساواة، أو من يمكن أن يطلق عليهم اسم دعاة حقوق المرأة العقلانيين لهذا السبب بالتحديد: لماذا تميل النساء بشكل أكبر نحو الرجال الذين يتمتعون بمكانة عالية أكثر من تلك التي يتمتعن بها، رغم أنهن ينعمن الآن باكتفاء اقتصادي؟ ولماذا يميل الرجال إلى تسلق أعلى المراتب رغم تأثير ذلك السيئ على صحة قلوبهم وعلى

طول أعمارهم؟ وما الذي يجعل الفتيات غير ماهرات في دراسة المراحل المتقدمة للرياضيات كحال الفتيان، رغم أن أمراً كهذا سيترتب عليه في نهاية الأمر الحصول على وظائف ذات رواتب جيدة؟ لماذا لا تقوم الفتيات بالسعي وراء تحقيق أهداف أعلى في مهنتهن كما يفعل الرجال، رغم المكانة المالية والاجتماعية الأعلى التي سيحصلن عليها من جراء ذلك؟ لماذا لا تشعر النساء بالسرور عند السماح لشخص آخر بالاعتناء بأطفالهن، رغم المنافع المادية والاجتماعية التي يمكن أن يحرزنها في حال فعلن ذلك؟ يعتقد «مالك» أن عدم منطقية توزع الأدوار بين الجنسين، السائدة عالمياً في جميع المجتمعات تقدم دعماً كبيراً للفكرة القائلة أن هذه السلوكيات عفوية وليست مكتسبة اجتماعياً.

إذاً، قد يكون انتقاد «مالك» نافعاً في إنقاذنا من أي رغبة مفرطة يبديها علم النفس التطوري، لاعتبار السمات العالمية برمتها فطرية، بدلاً من الإدراك بأن البعض منها يمكن أن يكون قد تم اكتسابه اجتماعياً وثقافياً. ولكن فيما يتعلق بفروقات الجنس، فإن معياره يوحي بأن تلك الفروق التي تتمتع بأهمية كبيرة في هذا الكتاب، تندرج في الغالب ضمن الفئة المحددة بيولوجياً، وليست مكتسبة اجتماعياً.

دفع وتيرة الجدال نحو الأمام

لعل الأمر الأكثر إدهاشاً بين كل ذلك، هو أنه إذا تركنا بعض المجادلات العنيفة جانباً، يبدو أن مقداراً كبيراً مما يقوله هؤلاء النقاد الأساسيون، يتفق، في الحقيقة، مع المعتقدات الرئيسية لعلم النفس التطوري. على سبيل المثال، توافق «آن فوستو ـ ستيرلينغ» على عمل «ديفيد باس» الذي يدور حول المشاكل التي تواجه الذكور والإناث، وكيف تطوره بشكل مختلف «له معقولية معينة». فهي تقول: «لنتقبل حقيقة أن الذكور والإناث قد طوروا مقاربات متباينة في الأمور المتعلقة بالغزل، والتزاوج، والعناية بالأطفال». إلا أنها تعترض على ما تفتقده هذه الطريقة من المعالجة. فمثلاً، عند دراستها لمسألة تطوير الذكر لقدرته المتعلقة بالمكان أشارت:

لو صحّ السيناريو الانتقائي الذي وضعه «باس»، فلربما ساهم في دعم تطور المهارات المتعلقة بالبحث عن الطعام، بما فيها القدرة على الاحتفاظ بخرائط ثلاثية البعد في عقل المرء، والعودة حتى بعد عدة سنوات، إلى المكان الذي وفر في السابق مصدراً جيداً للطعام. مما لا شك فيه أن «باس» يمكن أن يفترض أن الحمل والرضاعة دفعا الإناث نحو اختيار الذكور الذين كانوا معيلين يمكن الوثوق بهم، تماماً كما يمكنني أن أفترض أن ذلك دفع الإناث إلى تطوير مهارات بارعة تتعلق بالمكان والذاكرة. قد يكون كلانا مخطئاً أو مصيباً، ولكن بغياب المزيد من البيانات، والمزيد من الفرضيات المحددة، لا توجد طريقة لمعرفة ذلك[63].

تقوم «آن فوستو ـ ستيرلينغ» هنا بوضع فرضية حول تطور الأنثى قام علماء النفس التطوريين بوضعها مسبقاً، وذلك بشكل مترافق مع استنتاجات وتجارب تخص هذه الفرضية، كما تمت المناقشة مسبقاً. بهذا النوع من الانتقادات، لا يمكن إطلاقاً اعتبار «آن فوستو ـ ستيرلينغ» معارضة لعلم النفس التطوري، بل هي تشير فقط إلى الأساليب التي يمكن أن تُحسنه، والتي جرى تحسينها بالفعل.

بطريقة مماثلة، يبدو فعلياً أن «ستيفن غاي غولد»[64] متأثراً بعلم النفس التطوري، حين يجادل بقوله أن هذا العلم يمكن أن يكون مفيداً للغاية لو غيّر مؤيدو هذا العلم نزعتهم للولاء الدارويني (إشارة إلى داروين) المتفاني والمتطرف وأضافوا له جرعة صحية من الاعتدال. ويضيف يتمتع علم النفس التطوري ببعض المقدار من نفاذ البصيرة. وأنا أميل أيضاً إلى الاعتدال والشك، ولكن إذا انجرف بعض علماء النفس التطوريون إلى درجة الولاء الخالص، وبالتحديد في كتاباتهم المبسطة، وجب عندها أن يتم السيطرة على هذه النزعة. في الواقع، يشير «غولد»، إلى أن النظرية التالية هي من أكثر النظريات الواعدة لعلم النفس التطوري:

لا بد من الإدراك أن المتطلبات الداروينية المختلفة لدى الذكور والإناث، تتضمن سلوكيات مكيفة غريزية، مركزة على مصلحة الذكر في نشر السائل المنوي في أوسع نطاق ممكن (باعتبار أن الذكر لا يحتاج إلى أن يوظف أي طاقة فيما

يتعلق بنسله عدا عملية القذف المنوي). وعلى الأساليب التي تنتهجها الإناث في استخلاص المزيد من الوقت والاهتمام من الذكور (التي تأخذ شكل العناية الأبوية أو بتوفير المواد والمؤن، إلخ).

ولأن الذكور يقومون بإنتاج مقدار كبير من السائل المنوي «الرخيص»، في الوقت الذي تقوم به الإناث نسبياً بإنتاج «عدة بويضات فعالة ومكلفة»، ينبغي على الإناث توظيف مقدار أكبر من الوقت، بالإضافة إلى العديد من المصادر لتغذية الجيل القادم. ويقول «غولد»: إن مبدأ التوظيف الأبوي المتباين هذا خلق الحس الدارويني، وربما شكل أساساً لبعض الاختلافات، من النزعات العاطفية العامة السائدة بين ذكور وإناث الجنس البشري. من الواضح أن «غولد» يتعاطف بشكل كبير مع الاندفاع الأساسي لمشروع علم النفس التطوري.

لكنه لاحقاً، يعترض على طريقة توسع بعض علماء النفس التطوريين في هذه المقدمة المنطقية المتعلقة بتربية الأطفال. وهو يقول «إن مثل هذا التوظيف الوالدي لن يفسر سبب الفروقات الجنسية المفترضة التي يقدرها علم النفس». ما هي مشكلته هنا؟ إنه لا يريد أن يصدق أن الرجال مستعدون لتربية الأطفال «فقط لأن الإناث الذكيات تقوم بتضليلنا». إذ أنه يقول «قد يشعر الرجل بالحب تجاه الطفل لأن الأطفال يبدون فاتنون للغاية وقليلي الحيلة، وأيضاً لأن الأب يرى في ذريته جزء من نفسه». إلا أنه يجادل قائلاً «إن هذا الشعور ليس ناجماً بالضرورة عن تكيف دارويني منتقى بشكل محدد .... إن التكيف المباشر يمثل صيغة واحدة فقط من أصل التطور والنشوء».

مرة أخرى، سيلاحظ القراء الذين يتمتعون بقدرة عالية على الملاحظة، بأن «غولد» قام بذكر مجال مازال يستكشفه علماء النفس التطوريين: لعل «غولد» محق، ولعل حبه لأطفاله يعود فقط إلى أنه يرى في ذريته جزء من نفسه. ولكن ربما حدث هذا بسبب وجود تكيفات تطورت باتجاه هذه النهاية. وهي نظرية تم وضعها واختبارها. من جديد، يبدو أنه ضمن انتقادات «ستيفن غاي غولد»، وضمن

انتقادات أولئك الآخرين الذين يكتبون بنفس التوجه النقدي، والذي يفترض أنه يهدف إلى اعتبار المشروع برمته فاشلاً، هناك طرق تساعد علم النفس التطوري على التقدم نحو الأمام من أجل الوصول إلى أسس علمية أكثر صلابة.

لقد درسنا علم النفس التطوري لأجل غاية مباشرة. لقد كنا بحاجة إلى أن نحكم بين التفسيرات البيولوجية والتفسيرات الثقافية للفروقات المتعلقة بالجنس. لقد وجد أولئك الذين قمنا باستعراض كتاباتهم المؤيدة ـ مثل «كارولين كراغليا» ـ في علم النفس التطوري دعماً لقضيتهم التي تؤمن بأن البيولوجيا تشكل جزءاً أساسياً من الفروقات المتعلقة بالجنس. أما الآخرون، مثل «ناومي وولف»، فقد لمحوا إلى أن علم النفس التطوري قد يحتوي على بعض بعد التبصرات المفيدة في حالة المسائل الجنسية، على الرغم من أنه لم يقنعهم فعلياً. لقد عمدنا إلى استعراض هذا العلم هنا حتى نرى إذا ما كان بمقدورنا أن نقدم أساساً بيولوجياً معقولاً للفروقات المتعلقة بالجنس. الاستنتاج يقول بأن علم النفس التطوري قد نجح في ذلك. فهو لا يفسر فروقات الجنس المعنية من منظور بيولوجي فحسب (أو من منظور يختص بالتفاعل بين البيولوجيا والمجتمع)، ولكنه يقوم أيضاً بتقديم توقعات حديثة بالإضافة إلى طرق اختبارها، وهي تعتبر السمة المميزة للعلم الحقيقي. وقد تعزز الكثير من هذه التوقعات الحديثة بالبراهين العلمية. علاوة على ذلك، حين تم التحري عن بعض أكثر النقاد معارضة لعلم النفس التطوري، أتضح أن انتقاداتهم كشفت بشكل مفيد بعض نقاط الضعف، أو الحماس المفرط عند بعض علماء النفس التطوريين. لكنها لم تدحض هذا العلم برمته. في الحقيقة، قد يبدو أن بعض النقاد، كانوا في الأساس مؤيدين لمقاربة علم النفس التطوري، لكنهم أرادوا التقدم بها إلى الأمام نحو ما رأوا أنه أساس أكثر تقدماً، وهو الأساس الذي توصل إليه العلماء في بعض الحالات.

يتضح إذاً على نحو متزايد ومنطقي، أن علم النفس التطوري يقدم شرحاً بارعاً يقضي بأن سبب العديد من اختلافاتنا الجنسية الهامة المتعلقة بالتعليم تستند على أسس بيولوجية. وهذا هو الاستنتاج الذي سنأخذه بعين الاعتبار أثناء بحثنا في عواقب السياسة التعليمية في الفصل القادم.